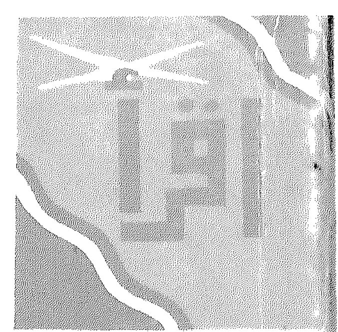
د . سمير محمد خواسك

فى بلاد العبابدة





اقرأ

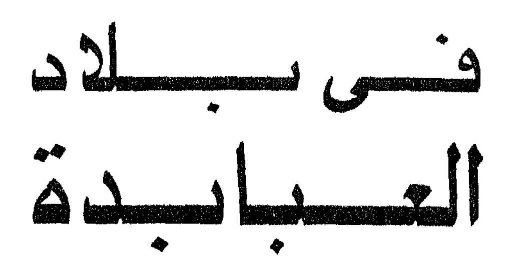
تصدر أول كل شهر

[٤٥٤] — ١٥ نوفمبر ١٩٨٣

رئيس التحرير **أنيس منصور**



د . سمير محمد خواسك



الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إلى الذين يقضون أجمل سنى عمرهم فى مجاهل الصحراء ، بعيداً عن المدنية والأضواء ، متنقلين بين السهول والجبال ، يعملون بإيمان وصمت .. فى اكتشاف الأرض المجهولة ، باحثين فى أسرارها ومنقبين عن كنوزها ، من أجل مزيد من القوة والمجد لوطنهم .. مصر العظيمة ..



بداية الرحلات

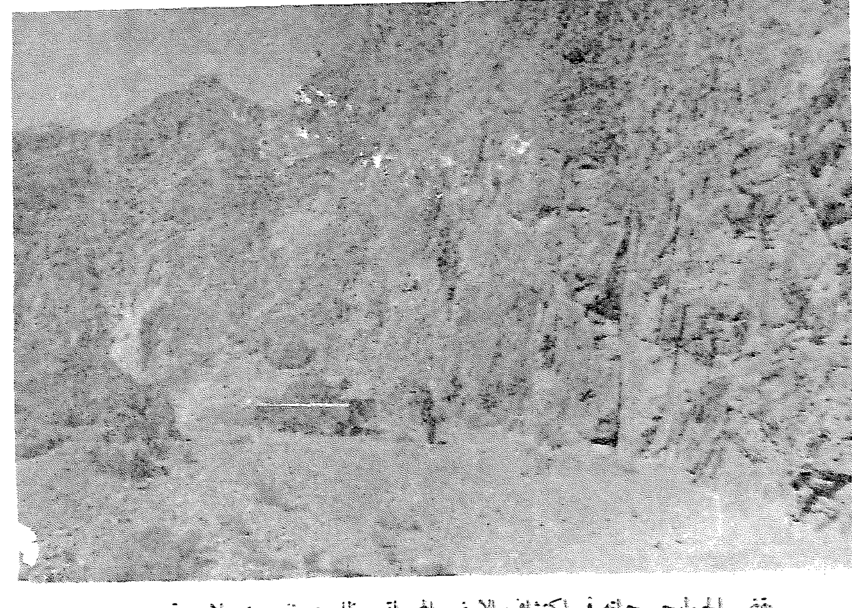
بدأت هذه الرحلات فى إحدى أمسيات الخريف عام ١٩٦٢ . تحرك القطار من « محطة مصر » متجهاً إلى الجنوب . كنت أجلس وحدى فى غرفة صغيرة بعربة النوم . أخذت أتأمل اللافتة الكبيرة التى كتب عليها « الجيزة » وهى تتباعد ببطء . هل هذا القرار الذى اتخذته ذات يوم من الأيام كان حقًّا قراراً صائباً أن تكون مهنتى هكذا ؟ . إن مهنة « الجيولوجى » مهنة شاقة ، ونصيب صاحبها من المكاسب المعتادة فى الحياة قليل . يقضى الجيولوجى حياته فى اكتشاف الأرض المجهولة . ويظل هو نفسه مجهولا ، حتى مهنته . . لايعرفها الكثيرون .

تبدأ رحلة الجيولوجى عادة من نهاية العمران ، عليه أن يصبر ويثابر ولا يثبط من عزيمته تعاقب السنوات بدون نتائج تذكر ، وأن يشجع نفسه بنفسه ويمشى فى الأرض ، إلى أن يأتى يوم يكتشف فيه إحدى المناطق التى تحتوى على ثروة معدنية

هامة أو تحتوى على البترول ، فتنشأ مدينة صناعية فى مكان الاكتشاف .

وقد يكتشف المياه فى مكان بالصحراء ، فيتحول هذا المكان المجهول إلى مكان معلوم . . يكرمه الإنسان . . ويشرفه العمران . وتتحول الكثبان الصفراء إلى أرض زراعية خضراء ، وتُخلَق القرى والنجوع . . يأتى إليها الناس من كل صوب ، وتُبنى المدارس والمحاكم ، والمستشفيات والجوامع والكنائس ، وربما يظهر فى المكان الجديد شخصيات كبيرة ، ومناصب هامة ، ورجال مشهورون ، وينسى من اكتشفه هو المجهول ، فهو فى العادة يغادره ويذهب لاكتشاف مكان جديد . ويظل هكذا هائماً فى القفار . . هذا هدفه وهذه رسالته .

* * *



يقضي الجيولوجي حياته في اكتشاف الارض المجهولة ويظل هو نفسه مجهولا ، حتى مهنته..
لا يعرفها الكثيرون



إلى بلاد العبابدة

طرق باب غرفتى بالقطار زميلان يسافران معى لأول مرة إلى تلك البقاع التى لاندرى عنها شيئاً . . وقالا إن ميعاد العشاء قد أزف ، فذهبنا جميعاً إلى عربة الأكل . وعلى المائدة كان حديثنا عن بلاد العبابدة التى نحن إليها ذاهبون ، ترى من هم العبابدة هؤلاء ؟ . . وهل هم من الأخيار أو ممن يميلون إلى الشر؟ وماهى عاداتهم وتقاليدهم ؟ ، وماذا يأكلون وماذا يشربون . . وأى زى يلبسون ؟ وهل يسكنون البيوت أو الخيام ؟ ، وهل هناك محلات وأسواق ؟

تقع بلاد العبابدة فى بقاع صحراوية مافى ذلك ريب ، ولكن أى صحراء هذه ؟ . . أهى رملية أم صخرية ؟ وهل فيها حيوانات وزواحف ؟ وهل الحيوانات مفترسة والزواحف سامة ؟ . وماهى أنواع الطيور هناك ؟ .

عُدْت من عربة الأكل فوجدت عامل القطار قد حول الأريكة الكبيرة إلى

سرير صغير . هانحن أولاء نقترب من « المنيا » سيصل القطار إلى قنا فى مطلع الفجر . . لاداعى للقلق فإن المفتش سيطرق الباب عند مشارف محطة الوصول . ولكن مهلا . . هل « قنا » هى غاية الرحلة ؟ . لا . . بل هى بدايتها . وربما لاتكون البداية هى قنا . . قد تكون مدينة القصير ، فكما قلنا إن رحلة الجيولوجى تبدأ من حيث ينتهى العمران . . أى عمران . . ولو كان طريقاً من الأسفلت أو خط سكة حديد ، أو طريقاً صحراويًّا أو ريفيًّا أو خطًّا من أعمدة التليفونات .

وقفنا مع أول خيوط النهار فى ميدان محطة قنا ، وتقدم منا رجل عرفنا وعرفناه حتى قبل السلام . عرفنا الرجل لكوننا ثلاثة من الغرباء ، وعرفناه بعربته « الحكومة » وهى الوحيدة الموجودة بميدان المحطة فى ذلك الوقت من السحر . قال ان اسمه « محمد صقر » ، وأنه جاء ليوصلنا إلى معسكر البعثة الجيولوجية الموجود بعيداً فى الصحراء ، وذهب بنا إلى مقهى الجبلاوى وتركنا هناك قائلا إنه سيعود إلينا بعد وقت قليل .

وقد تبين لنا أن الوقت القليل فى مفهومه عبارة عن تسع ساعات ، ذهب خلالها يمشى فى أسواق قنا يملأ سيارته بالخضروات والخبز والفاكهة واللحوم والعلب المحفوظة والدخان والسجاير والسكر والشاى ، وطلبات متناثرة أخرى مكتوبة فى عدة « كشوفات » ، ليوصلها إلى رجال البعثة الجيولوجية . . فى المعسكر البعيد ، وبالطبع لم يستغرق شراء هذه الطلبات وترتيبها فى السيارة كل هذا الوقت ، فقد أنفق باقى النهار يمرح مع أصدقائه . فهذه فرصته للنزهة فى المدينة بعد طول غياب فى الصحراء .

غادرنا « قنا » فى الأصيل متجهين إلى سفاجة على طريق يصل بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر . الرمال تغطى الوادى الفسيح وتكسُو الأرض المحيطة حتى نهاية الأفق ، لايقطع رُتوب اللون الأصفر إلا خط « الأسفلت » الأسود اللانهائى

الامتداد . ولايغير من هذا المنظر الرتيب إلا وجود تلال صغيرة تظهر بين حين وآخر .

قال محمد صقر . . إنه كان باستطاعته أن يذهب بنا من طريق قريب يصل بين قنا والقصير مباشرة ولكنه طريق غير مرصوف ، وسوف تشعرون فيما بعد أيها الأساتذة بقيمة الأسفلت عندما تجرّبون الصحراء .

وقال صقر : إن المعسكر الرئيسى للبعثة الجيولوجية موجود فى وادى عسل ، وإن الدكتور رئيس البعثة متغيب فى إجازة بالقاهرة ، وإن المسئول عمّن فيها هو نائبه الجيولوجى حسن عساف . وهل هذه أول مرة تذهبون فيها إلى الصحراء ؟ ، وإننى ماجئت إلى هنا إلا لتحقيق رسالة سامية فى الحياة ، فأنا ياسادة عندى ست بنات ، وغايتى من هذه الدنيا أن أعلمهن خير تعليم ، وفى موسم النتائج من كل عام حينما يصلنى نبأ نجاح إحداهن وأنا فى تلك الصحراء ، أحس أن متاعبى فى الجبال قد زالت ، وأشعر بأن الله قد عوضنى عن حرمانى من المعيشة معهن بأن كتب لهن التوفيق ، فالعلم خير سلاح للفتاة . . يحميها من كل منزلق ويقوى من شخصيتها ، ويكرم من شأنها ». وهل تصدقون أن أكبر بناتى قد وصلت إلى الثانوية العامة وأننى أتمنى أن تدخل كلية العلوم وأن تتخرج جيولوجية . . وأن تكون أول من تعمل فى هذا المجال من بنات جنسها ؟ .

وقد لاحظت أن الشىء الذى يشد الرجل إلى الصحراء ليس تلك الر فقط ، بل إن حب المغامرة يجذبه إليها بالمثل ، فهو سعيد لأنه رأى من الجبال يره أحد قبله ، وأنه مشى فى أودية ربما لم تطأها قدم إنسان من قبل . ربما السبب الرئيسى فى مجيئه إلى الصحراء بادىء الأمر هو تحقيق تلك الرسالة السا ولكن حب خوض المجهول قد تمكن من نفسه ، وأصبحت المغامرات اليومية شهدها مع المستكشفين . . جزءاً من شخصيته . وقد شاء الله أن يلازمنى هذ

الرجل منذ ذلك اليوم خمسة عشر عاماً جاب معى خلالها أماكن مجهولة ومتباينة فى الصحراء المصرية ، وكنت أرى نتائج كفاحه وأمنياته تتحقق مع مرور الأعوام . . بنجاح البنات وتخرجهن الواحدة بعد الأخرى ثم زواجهن الواحدة بعد الأخرى ، ومع كل أمنية تتحقق يزداد الرجل شباباً ونشاطاً . . وحبًّا للصحراء وتعلُّقاً بالجبال . وفى سن الشيخوخة . . رزقه الله بالولد على غير انتظار ، وكأن نعمة الله عليه بهذا الولد هى مكافأة له على حسن تربيته للبنات .

أخذنا طريقنا على ساحل البحر الأحمر فى اتجاه الجنوب من سفاجة إلى القصير ثم غادرناها واستمر سفرنا فى نفس الاتجاه إلى أن وصلت السيارة إلى « رجم » من الأحجار المرصوصة على جانب الطريق لايزيد ارتفاعه على نصف متر ، فتوقف صقر قائلا : هذه العلامة وضعناها لكى تدلنا على مدخل وادى عسل . ونزل من سيارته وأطفأ نورها وأخذ ينظر بعيداً فى ظلام الصحراء حتى يستدل على اتجاهه ، ثم تركنا الطريق المرصوف وبدأت السيارة « اللاندروفر » تسير فى سهل منبسط عظيم على طريق صحراوى غير واضح المعالم متجهة إلى الغرب ، تجرى فى الظلام وتمرق بين « المطبات » بسرعة وكفاءة وعبث ، فقد صممت « اللاندروفر » خصيصاً للصحراء ، ويوم أن جاء « مونتجومرى » إلى مصر عام ١٩٦٧ لزيارة مواقع الحرب العالمية الثانية . . لم يطلب إلا سيارتين فقط من هذا الطراز .

لاحت بقعة من النور فى الأفق البعيد من الصحراء المظلمة قال صقر إنها معسكر البعثة الرئيسى .

* * *

استقبلنا حسن عساف ، شاب . . باسم الوجه . . طويل اللحية والشعر . . يلبس ملابس العمل . دخلنا خيمة بها أربع مناضد كبيرة متلاصقة وحولها مقاعد مختلفة الألوان وقد ثبت « الكلوب » فى مسمار دق فى عمود الخيمة ، قال حسن إن

هذا المكان يطلقون عليه « الميس » وهو مخصص لكى يتناول الطعام فيه رئيس البعثة والجيولوجيون ومن يحضر إليهم من ضيوف ، أما « الأفندية » فلهم « ميس » آخر ومطبخ مستقل . ويفضل السائقون والعمال تجهيز طعامهم بأنفسهم فى خيام نومهم كلٌ على انفراد ، وقد يشترك الأقارب منهم أو البلديات فى إعداده وتناوله .

وقال إنه جيولوجى . . تخرج من جامعة عين شمس منذ عامين قضاهما فى هذه المنطقة من الصحراء الشرقية . وإن الدكتور رئيس البعثة سوف يعود قريباً من القاهرة ، وإن موسم العمل لم يحن بعد ، فالعمل فى الصحراء يبدأ من نوفمبر وينتهى فى مايو لتعذر الرحلات بين الجبال فى أشهر الصيف . وإن مناخ المنطقة قارى وقد يسقط المطر على هيئة رخة أو أكثر ، مرة واحدة كل بضع سنوات .

وأجاب عساف على سؤال لى قائلا : إن هذا المعسكر الذى نحن فيه هو معسكر رئاسة البعثة وله فرع فى وادى العطشان يقيم فيه الجزء الأكبر من العمال لأنه منطقة عمل رئيسية ، كما يوجد فرع آخر فى وادى الكريم .

وقال إن الرجال هنا ينقسمون إلى أربعة أقسام رئيسية : رجال من الوجه البحرى ، ورجال من الصعيد وبالذات من محافظة قنا ، والجزء الثالث من سكان البحر الأحمر وخاصة مدينة القصير ، وأما الجزء الرابع فإنهم من العبابدة . . أهل تلك المنطقة وهم يرجعون فى أصلهم إلى شبه الجزيرة العربية وينتسبون إلى جدهم الأكبر الزبير بن العوام رضى الله عنه ، يعيشون على الرعى ويجوبون المنطقة من أقصاها إلى اقصاها بحثاً عن العشب والماء . وقد استخدمنا عمالا مؤقتين منهم . . ولنا صلات دائمة بكل العبابدة سواء منهم من يعملون عندنا كعمال أو من يمرون علينا أثناء الرعى والترحال .

وقال عساف إننا نرسل سيارة « لورى » مساء كل أربعاء لكى تحضر الخضروات واللحوم والبقول والخبز من قنا وتعود مساء الخميس ، فيكون صباح

الجمعة راحة للرجال يطهون فيه طعامهم ويغسلون ثيابهم .

وسألته : والماء ؟

قال :

— حسب التساهيل ، نرسل « اللورى » مرة كل أسبوع ليشترى الماء من القصير ومعه تعليمات بأنه إذا لم يوفق فعليه بالذهاب إلى قنا لتعبئة الخزانات التى على ظهره من مياه نهر النيل مجاناً .

ثم سألناه :

— ولماذا يفشل فى الحصول على الماء من القصير ؟

— لأن سكانها لا يصل إليهم الماء العذب من النيل . بل يعتمدون على محطة صغيرة لتنقية ماء البحر من الأملاح عن طريق التبخير ثم التكثيف ، ويوم أن تتعطل إحدى الماكينات ، يصبح البلد فى أزمة . . فلا يتحملون الغرباء .

— والترفيه ؟

— كما قلت لكم . . يوم الجمعة يطهو العمال طعامهم ويغسلون ثيابهم ، وهذا نوع من أنواع الترفيه ، ثم يلبسون ملابس نظيفة ويصلون الجمعة فى جامع القصير ، والصلاة فى الجامع تريح نفوسهم وتطمئن قلوبهم .

* * *

فى وادى عسل

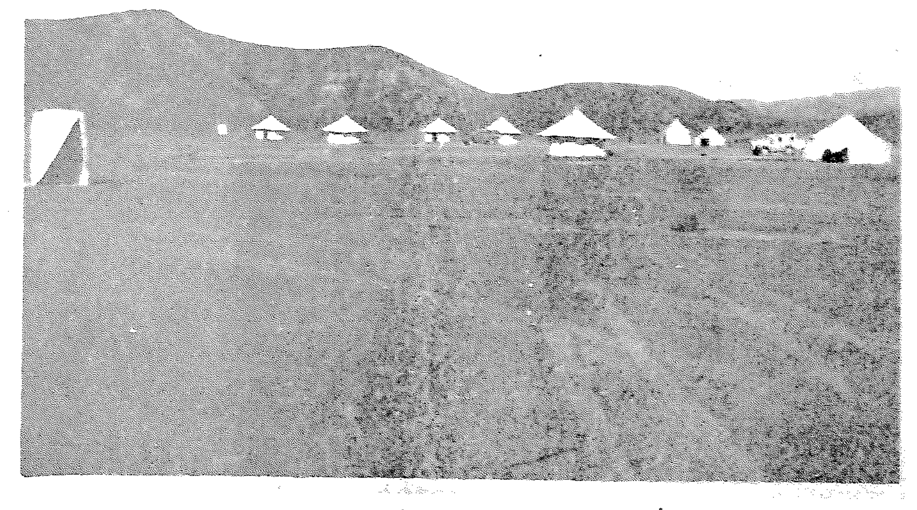
وقبل شروق الشمس كنت أمام خيمتى أتأمل المكان فى ضوء النهار الذى لم يزل خافتاً . الوادى فسيح وممتد . . أرضيته مكونة من صخور مفتتة مختلفة الألوان ، تتراوح أحجامها من الحصى الصغيرة إلى الجلاميد . يقولون إن الوادى عبارة عن متحف من متاحف الطبيعة ، توجد على أرضه عينات من جبال المنطقة كلها . وهذه حقيقة ، لأن فتات الصخور التى تتكسر على قمم الجبال المحيطة . . تجرفها السيول من كل فج لتستقر فى الأودية .

تلال صغيرة من الحجر الرملى الأصفر والحجر الطينى . . ومن الإرداوز ، توجد متناثرة فى وادى عسل تتخللها صخور بركانية . . كريمية اللون ناصعة . النباتات قليلة وجافة فى الوادى ، هذه النباتات عبارة عن شجيرات صغيرة من الأشواك ، بينها بعض الأعشاب . وتوجد شجرة واحدة فى فم الوادى .

لاتوجد جبال عالية فى وادى عسل . . ومع هذا فإن أشباح الجبال الكبرى تلوح فى الأفق كأنها قريبة . . وهى فى واقع الأمر بعيدة . . غير أن حجمها الضخم وارتفاعها الشاهق يظهرها وكأنها قريبة منك . هذا جبل أبو الطيور ، وهذا جبل أم نقاط . . وأما ذلك الجبل العظيم فإنه « جبل السباعى » الذى سميت المنطقة كلها باسمه تقديراً لضخامته ، وكلها مكونة من الصخور الجرانيتية الوردية ، وهى علامات شامخة ذات أهمية كبرى لمن يسافر فى هذه المنطقة . . حينما يريد أن يحدد موقعه أو اتجاهه أو يضل الطريق .

معسكر رئاسة البعثة القابع فى وادى عسل لايؤمن بالاشتراكية ، وربما لم يسمع عنها قط حتى الآن . فالطبقية هى المذهب الذى يعتنقه بلا أى تردد أو حياء .

هذا قطاع فى شرق المعسكر مكون من عدة خيام من النوع الممتاز ، ناصعة البياض نظيفة عالية اسمها خيام « ضبطان » . . لايسكنها إلا الجيولوجيون ! . . تتوسطها خيمة مثبت على قمتها علم أحمر يسكنها رئيس البعثة ، متى شاء وحضر إلى وادى عسل . وفى كل خيمة من تلك الخيام تجد منضدة جديدة حمراء وكرسياً واحداً وسريراً عليه بطاطين نظيفة وصواناً من الصاج ذا ضلفة واحدة ، وتتميز خيمة رئيس البعثة بأن الصوان أكبر والمنضدة أكثر اتساعاً ، والكرسى له ذراعان . ومن بين تلك الخيام . . خيمة يطلقون عليها - كما قلنا - خيمة « الميس » بها ثلاجة تعمل بالبوتاجاز وأخرى تعمل بالجاز ، وأربع مناضد مربعة كبيرة متلاصقة حمراء اللون . . حولها كراسى مختلفة الألوان ، ويوجد لرئيس البعثة مقعد خاص به . وفى المساء يلعبون فى تلك الخيمة الورق والنرد أو الشطرنج . وفى مواجهة خيمة « الميس » على بعد ثلاثين متراً منها يوجد كشك من الصاج اسمه المطبخ ، به بوتاجاز ونملية وأدوات الأكل . كما توجد خيمة أخرى اسمها « المكتب » بها منضدة رسم كبيرة وأدوات هندسية .



أحد معسكرات البعثة الجيولوجية فى الصحراء الشرقية



هذا هو قطاع الجيولوجيين ، أو هو قطاع البكوات كما يطلقون عليه لصعوبة نطق كلمة الجيولوجيين .

وأما القطاع الثانى فاسمه قطاع « الأفندية » ويتكون من مجموعة من الخيام المتوسطة اسمها خيام « طبيب » .

ويتكون القطاع الثالث من خيام صغيرة منتصبة فى أطراف المعسكر تختفى وراء التلال حياءً منها وأدباً فهى أسوأ أنواع الخيام ، إذا دخلتها فلابد أن تنحنى لصغر بابها ، وهى غير نظيفة من الداخل والخارج ، عليها آثار الهباب بسبب الطبخ بداخلها . . هذه الخيام اسمها « العسكرى » . . يعيش فيها العمال . وتستطيع أن تميز من بينها بسهولة الخيام التى يسكنها سائقون بأن تجدها شديدة البعد عن باقى الخيام . . ومتناثرة فى الوادى وأمام كل منها سيارة . . خاصة بكل سائق منهم .

وأما خيمة الجامع فهى فى مركز المعسكر فى مكان فسيح . . مزينة برايات خضراء .

وكأى مجتمع من المجتمعات الصغيرة . . لايخلو الأمر من خلافات يومية ، وفى هذا المكان المنعزل عن المدنية حيث لايوجد قضاء ، فإن تلك المنازعات تعرض كل يوم على مانطلق عليه هنا . . « مجلس الحكم » . .

* * *

مجلس الحكم فى الصحراء

ينعقد مجلس الحكم فى الصحراء . . وقت الأصيل من كل يوم بطريقة تلقائية . القاضى فى هذا المجلس هو رئيس البعثة أو من ينوب عنه إن كان غائباً ، وأما المحلفون فهم زملاؤه من الجيولوجيين والمهندسين وبعض الرجال الأفاضل من كبار السن . وهو ليس مجلساً رسميًّا بطبيعة الحال . . بل جلسة يومية وعادية ، يجلس فيها الرئيس كعادته فى ظلال خيمة « الميس » ومعه أصدقاؤه يتناولون شاى الأصيل ، ويحضر إليهم كل من له طلب أو شكوى . .

وأما القضايا التى تعرض على هذا المجلس الودى فهى بالنوادر والملح أشبه .

فهذا راع من العبابدة يمر على وادى عسل . . فيعرج للتحية والسلام . . طالباً قربة من الماء . . كهدية له من الغرباء .

وهذا عبادى آخر يعرض للبيع خروفاً مكسور الساق بأبخس الأثمان .

وذاك رجل يطلب إجازة فورية بدون سبب واضح ، فيلحظ الرئيس بخبرته أنه الشعور المضنى الذى يسود بين المغتربين ويطلقون عليه « الاكتئاب » .

وآخر يطلب بطانية لأن الهزيع الأخير من الليل يصبح بارداً كالثلج فى تلك الأيّام .

وهذا رجل من رجال البعثة قادم فى مأمورية من أحد المعسكرات التابعة لها فى وادى الكريم ، يشكو من عدم وجود مصل للعقرب أو الثعبان .

* * *

وتجد شكاوى عديدة سببها المزاح .

فهذا رجل يشكو أحد زملائه لأنه داعبه مساء الأمس واختبأ فى ركن مظلم من الخيمة وقلد فحيح الأفعى ، وما هكذا يكون المزاح .

وشخص آخر له شكوى مماثلة . . فقد ألقى صديق له . . عقرباً مقطوعة الذيل فى قفاه . . فذعر وظن أن العقرب سليمة الذيل ، وأنها ستلدغه لامحالة فضحك منه إخوانه حتى استلقوا على الأرض من منظره . . وهو يفتش عن العقرب بين ثيابه .

وشكوى ثالثة من شكاوى المزاح ، يقول صاحبها إنه حديث العهد بالصحراء وإن هذه أول مرة يحضر فيها إلى تلك الأماكن المقطوعة ، يشكو بعض الشبان الأشقياء ، فقد ألفوا حديثاً بينهم . . قصدوا به إيهامه أنه يوجد فى فم الوادى – وراء التل الأصفر – كشك يبيع المرطبات وبجواره مقهى صغير يقدم الشاى والبورى ، وقد صدق هذا ولم يعرف أنه المقصود بالحوار . . فمشى وحده مسيرة ساعة ولم يجد كشكاً ولامقهى ولابورى ، وعاد فوجد حشداً من الرجال يرقبونه من فوق ربوة عالية يلوحون له ويضحكون من سذاجته .

* * *

ويدخل الشيخ عبد الله حانقاً ومعه ورقة كبيرة مطوية . . ويوجه سؤاله إلى رئيس البعثة قائلا :

– هل تعرف عنى أيها الرئيس أننى ممن يحبون النساء ؟

ويتعجب الرئيس من غرابة السؤال ويؤكد له أن مايعرفه عنه غير ذلك .

ويقول الشيخ عبد الله :

– إن المرأة ياسادة فتنة . . جمالها يخرج الرجل عن عقله ويضله عن صوابه . . ويضعه فى قائمة المجانين .

ويسأله الرئيس أن يوجز ويخبرهم بالقصة . فيبسط الشيخ عبد الله الورقة الكبيرة بين يديه فإذا بها صورة لامرأة فاتنة . . شبه عارية ، ويستعيذ البعض من الشيطان الرجيم ، فى حين يتمتم آخرون بعبارات الإعجاب والاستحسان .

ويقول الشيخ :

– اتهمنى الناس بسرقة هذه الورقة . . فقد أعلن بعضهم أن صورة امرأة فاتنة قد ضاعت ، وأخذوا يفتشون عنها فى كل مكان ، إلى أن عثروا عليها فى جيب خيمتى . وماذا يقول أهلى فى الصعيد إن علموا بهذا الاتهام المشين ؟ . . وكيف تكون سمعتى بعد ذلك فى قريتى وأنا رجل مستقيم ؟ ! .

ويطيب الرئيس خاطره . . ويطمئنه من هواجسه بأن أحداً من بلده لن يعلم بهذا الأمر . . ويؤكد له أنه لن يسكت إلا إذا عرف الفاعل الخبيث . ويغمز أحد المحلفين الجالسين . . من شباب البكوات الأشقياء بعينه إلى الرئيس ، فتدور همهمة وضحكات خافتة ، إذ إن الفاعل هو البك الصغير الذى غمز بعينه ، فقد خبأ الصورة فى جيب خيمة الشيخ وأعلن عن سرقتها ، وأخذ الرجال يبحثون عنها فعثروا عليها بين ملابس الرجل المستقيم . وحفظ الرئيس تلك القضية بالطبع ، وضحك هو نفسه من تلك الدعابة .

وهذه شكوى أكثر جدية . . يدخل بها أحد الرعاة من العبابدة . يسلم ويكبر ، ويظل يرفع ثيابه قطعة بعد أخرى ، ويخرج منها فى النهاية رُقْعة رثّة من الورق . . يطالعها الرئيس فيجد صعوبة فى قراءتها . . لاتساخها من عرق الطريق . ويتطوع أحد المخلفين ويفك خطها .

وبعد فترة من الصمت تطول . . يقرأ مافى الورقة بصوت مسموع : من شيخ العبابدة إلى كبير الغرباء . . يحييه فيها ومن معه ويخصه بالتبجيل والإكرام ، ويشكو له أن أحد رجاله كان يقود سيارة ضخمة حمراء متجهاً إلى جبل « أم خرص » ، ووجد جوالا فيه فحم وضعه أحد العبابدة هكذا فى الخلاء ، فالعبابدة كلهم أمناء . . ولايخشى على أى شىء يترك فى الأودية . . وسرق السائق هذا الجوال ونسى أن الله سبحانه وتعالى يراه . وفى أى شهر يفعل هذا ؟ ، إنه فى شهر شعبان الحرام .

ويستغفر المخلفون ربهم على مافعل الرجل ، ويقول الرئيس : هذا فلان . . أرسلوا إليه وأبلغوه بأننى قد حكمت عليه بدفع ثمن الجوال مرتين ولو عاد إليها فى مستقبل الأيام فسوف يكون لى معه شأن ذو بال .

* * *

والتفت الرئيس فوجد شابًا أسمر نحيفاً . . تحت العشرين ، من إحدى قرى مركز « قفط » بالصعيد ، يجلس القرفصاء على الأرض مستنداً إلى « كنار الخيمة » . كان الشاب ينظر إليه بين حين وآخر ويتردد فى عرض أمرًا عليه . فعرف الرئيس بفطنته أنه يريد أن يطلب منه أمراً شخصيًا يمنعه حياؤه من أن يطلع عليه المخلفين . فيغادر الرئيس مقعده وينتحى بالشاب جانباً . . خلف الخيمة . . وكأنه قرر أن تكون قضيته فى جلسة سرية . وبعد فترة يعود إلى مكانه وينصرف الشاب راضياً . . سعيداً كل السعادة ، فقد تحقق حلمه بعد كفاح فى الصحراء لمدة

عامين ، فجمع المهر ، وهاهو ذا الرئيس قد قبل أن يتوسط عند خال هذا الشاب ليزوجه من ابنته . . وقد كان الخال رافضاً كل الرفض لشقاوة الولد وعدم اطمئنانه على استقرار ابنته الوحيدة معه . وكان الجميع يعرفون أنه لارجوع للخال عن موقفه المتحجر إلا لو تدخل رئيس البعثة بنفسه وخطب الفتاة للشاب من أبيها .

* * *

وجاء رجل من أقصى الوادى ، ودخل فى الموضوع مباشرة بعد السلام ، وبادر الجالسين بسؤال :

– أفمن يذهب إلى الريف كمن يسافر إلى « أم نار » ؟

فيتعجب الرئيس من غموض السؤال ، ويطلب منه أن يفصح عن مراده . فيقول العبادى :

– أعطانى « مراد أفندى » إجازة مقدارها ستة أيام ، صحيح أن العمال لاتزيد إجازتهم عن هذا المقدار ، ولكن يوجد ظلم غير مقصود واقع علينا نحن العبابدة من هذا القرار . فزملاؤنا من أهل الريف (يقصد أهل الصعيد) ، يسافرون إلى بلدهم على ظهر سيارة سرعتها سبحان الخلاق ، فيصلون فى يوم واحد وبلا أى عناء . وأما أنا فسوف أسافر إلى أهلى فى جبل « أم نار » ماشياً على قدمى ، لأقطع المسافة فى ثلاث ليال . فهل يرضيك أيها الرجل الكريم أننى عندما أصل إليهم ألقى بهديتى من الزاد ومايتبقى من الماء ، وأعود فوراً إلى مكان عملى قبل أن أستريح ، حتى أصل إليه خلال الليالى الباقيات ؟ ! ويبتسم الرئيس ابتسامة ذات مغزى عندما يسمع كلمة أستريح ويقول : أنت على حق ياعبدان . . ولك أن تبيت ليلة كاملة فى « أم نار » . فيهلل الرجل ويكبر ويدعو له بطول البقاء . ويسأله الرئيس : أما من طلب آخر لك أيها الهمام ؟ . فيقول : نعم . . أن تسمح لى بركوب السيارة التى ستسافر غداً للبحث فى الجبال ، فأنزل عند جبل العطوى فيوفرون على مسيرة

ليلة على الأقدام ، وأن تأمر لى بأخذ حصتى من الماء عن الإجازة التى سأتغيب خلالها ، وسأحملها معى فى قربة تكون هدية ثمينة لأهلى فى « أم نار » ، فندعو لك بطول العمر والسلام .

* * *

ويأتى دور قضايا تقسيم الماء ، يعرضها الساقى المكلف بأن يوزعها بين الناس بالعدل . يقول إن فلاناً ينتهز فرصة أن الرئيس أمر بأن يكون الوضوء مجاناً خلال الأشهر الحرم . . أى خارجاً عن الحصة اليومية ، فأخذ يتوضأ عدة مرات فى اليوم وكأنه يستحم ، بل يسكب الماء فوق ثيابه رفاهية وترطيباً ، وأن الله لن يقبل وضوءه لأنه ماء حرام . ويقول إنه يعرف رجالا لم يولوا وجوههم نحو القبلة منذ أن جاءوا إلى الصحراء . . انتظموا فى الصلاة بعد هذا القرار وأصبحوا وكأنهم من الأتقياء .

كما يشكو موزع المياه من « عبد الرحمن الذهبى » ، ويتهمه بأنه ينتهك العرف المتفق عليه بأن الكلاب لاتشرب إلا من الماء الذى استعمل أكثر من مرة ، وقد أعطاها اليوم ماءً نقيًّا . ويثور عبد الرحمن قائلا إنه حر فى حصته . . ولادخل لأحد إن هو أعطى كلابه نصيبه من الماء أو شرب هو من ماء الكلاب ، ثم يحاول أن يستميل الرجال فى مجلس الحكم إلى جانبه ، فيشرح لهم أنه لم يقدم الماء لكلاب كبيرة بل للجراء فهى ضعيفة ، وأن حالتها النفسية سيئة منذ أن رأت الثعلب يعبث فى قمامة المطبخ منذ ثلاثة أيام .

* * *

وأما هذا فهو من العبابدة ، ماجاء ليعرض قضية أو ليطلب حاجة إنما جاء لكى يقدم اعترافاً .

قال : سافرتم فى إجازة عيد الفطر المبارك أعاده الله عليكم جميعاً بالظلال

والخيرات ، وبقيت فى المعسكر وحدى لأحرسه . والمعسكر لايحتاج إلى حراسة فبلاد العبابدة كلها أمان . ولكن وجودى له فائدة أخرى فإن قامت دوامة هوائية أو جاء سيل . . أجمع الأشياء المتناثرة أو أشد الخيام .

وزارتنى أمى أيها الرئيس صباح يوم العيد . . جاءت على جمل . . قطعت به المسافة من وادى القش إلى هنا فى ثلاث ليال ، وأحضرت لى معها هدية العيد . . لحوماً وبعض الزاد . وأمى امرأة عجوز . . فهل أستطيع أن أرجعها بدون أن أكرمها وأرد إليها بعض إحسانها ؟ ، ولم أجد إلا أن أهديها ثلاث قرب من الماء . وإننى أعترف إليك بهذا لكى أريح ضميرى ، ولكى تستفيد أمى من الماء ، ويبارك لها الله فيه ويشفيها به ويطفئ ظمأها بالقليل منه آمين . . فهل تسامحنى أيها الأستاذ ؟

ويقول له الرئيس : بل إننى أحييك ، وأسامحك فيما أعطيت لأمك من قِرَب الماء ، فقد أوصى رسول الله بالأم ثلاث مرات ، ولو كنت قد أرجعتها إلى وادى القش بدون الماء لنالك منى غضب شديد .

* * *

ويدخل شاب أبيض الوجه ، بهى الطلعة ، أنيق الملبس ، منسق الشعر ، يسلم على الرئيس ويقول :

– أشكو إليك الملاحظ حامد راشد فقد ضربنى بالقلم .

ويكتم الرئيس وأصدقاؤه الضحك مراعاة لمشاعر الشاب ، ويرسل فى استدعاء الملاحظ راشد .

وفى أثناء انتظار وصوله يسأله الرئيس :

– ومن أنت أيها الشاب ؟ ، أنت لاتعمل عندنا ، وإن مظهرك المتأنق لايدل على أنك ممن يعيشون فى الجبال .

فيتلعثم ويحمر وجهه خجلا ، ويتطوع أحد الجالسين . . ويشرح للرئيس قائلا :

– هذا ياأستاذ شاب طموح من أهل القاهرة مهنته حلاق ، جاء إلى بلده القصير باحثاً عن الرزق ، فاستأجر فيها « دكاناً » بإيجار شهرى مقداره عشرون قرشاً . وبالاتفاق الشخصى مع سائق البعثة . . كان يذهب مرة كل شهر إلى وادى العطشان فى السيارة التى توصل الماء والطعام ، ويعود بعد ذلك حسبما يجد سيارة راجعة إلى القصير . وفى وادى العطشان يحلق للناس ، ويزين أشكال من هم على أهبة السفر فى إجازة ، ويكتب للباقين الخطابات التى يودون إرسالها إلى أحبائهم فى البلاد ، وعنده من أسلوب الكتابة ما بهر به سكان وادى العطشان من الصعايدة والعبابدة على حد سواء ، فهو ينمق الكلام وحق الله . . كأنه يصفف الشعر ، وله سجع يخلب الألباب . . وعبارات عن الحب جعلت أجرته ترتفع إلى علبة « سجاير » من النوع الصغير .

ويصل الملاحظ . . فيسأله الرئيس :

– هل ضربت هذا الشاب بالقلم ياراشد ؟

ويجيب الرجل :

– نعم ، ومن حسن حظه أننى لم أجهز عليه ، فقد كاد أن يهلك نفسه ويهلك معه قوماً آخرين .

ويسأله الرئيس : وكيف كان ذلك ؟

فيقول :

– جاءت من القاهرة إلى قنا ثم إلى القصير سيارة محملة بالمفرقعات تقصد الوصول إلينا فى وادى العطشان . وبعد أن وصلت إلى بلدة القصير سأل سائقها الناس أن يدلوه على وادى العطشان هذا فلم يعرف مكانه أحد ، بل لم يسمع به أى

منهم على الإطلاق . وذهبوا إلى المأمور فأخرج خريطة من الصوان بسطها أمامه فلم يجد لهذا الوادى أى ذكر ، فأرسل إلى خبراء الصحراء . . ولم يعثر أيضاً بينهم على من يرشد الغرباء إلى مكان الوادى المجهول . وتطوع هذا المتحذلق وقال إنه يذهب إليه كل شهر مرة وإنه حفظ الطريق إليه . وركب إلى جوار السائق مختالاً فخوراً كأنه بمسالك الصحراء خبير ، فخرج بهم عن الطريق المعتاد إلى طريق آخر يجهله .

علمت بهذا الموضوع مصادفة عندما كنت أجلس بالأمس فى المقهى بمدينة القصير ، فقد أخبرونى بقيام السيارة يرشدها هذا الأحمق ، وتأكد لى أنهم ضلوا الطريق لأنهم لم يصلوا إلينا فى وادى العطشان ، فجهزت سيارة وعدة كاملة وخزاناً من الماء وكثيراً من الطعام ، واقتفيت أثرهم على الطريق المؤدى إلى وادى العطشان ورأيت المكان الذى انحرفوا فيه ، فآثار تلك السيارة هى أحدث مامر فى هذا المكان ، وتعقبت آثارها فى أرض الوادى حتى وصلت بعد سفر طويل إلى جبل « أبو الطيور » ، (وهمهم الحاضرون بكلام غير مسموع حينما سمعوا كلمة « أبو الطيور ») . وعثرت عليهم عند سفح الجبل العظيم بجوار واحدة من الشجيرات الثلاث الموجودة هناك .

وقال راشد : ولورأيت منظر الناس أيها الرئيس نائمين فى استسلام إلى جوار السيارة لرثيت لحالهم . فما كان منى إلا أن أعطيت الشاب على وجهه قلماً واحداً ، وأنا مثل والده أخاف عليه ومن معه . . خطر الصحراء .

وسأل الرئيس الحلاق : هل يرضيك هذا الكلام الأخير ؟ . . لاتكررها مرة ثانية يابنى ، ولا تمشِ فى الصحراء بدون معرفة وثيقة بالطريق ، فتعرض نفسك ومن معك للهلاك .

* * *

وكنت ترى الرئيس خلال فترة انعقاد الجلسة وحتى الآن هادئاً باسماً . . مهما

كان انفعال أصحاب القضايا . . يتقبل آراءهم ويستمع إلى مشكلاتهم بنفس راضية مطمئنة ، ويجد الحل المناسب لها ببساطة اعتادها من طول عيشه فى الصحراء .

وما انزعج قطّ . . إلا حينما عرضت عليه تلك القضية الأخيرة ، فقد دخل عليه أحد الرعاة يخبره أن شيخاً من شيوخ العبابدة يبعث إليه بالسلام ويبلغه أن فلاناً قطع الشجرة الموجودة عند التقاء وادى زيدون بوادى أبو جرادى ، ولم يخش الله فى أنها الشجرة الوحيدة بهذا المكان الفسيح وأنها كانت ملجأ للمسافرين يحتمون بظلها من هجير الصحراء .

وهب الرئيس واقفاً وقال بحزن . . وشدة لم يعهدها فيه أصدقاؤه :

–كافر من يقطع شجرة .

وأخذ يتمتم بتلك الجملة كأنه لايجد طريقة يرثى بها الشجرة إلا التكرار . وجلس مهموماً كأنه تلقى خبراً فى عزيز أو قريب ، وخيم الصمت على الحاضرين احتراماً لذكريات الرئيس مع الشجرة المقطوعة ، فهم يعرفون أنها أنقذت حياته ذات يوم من الأيام ، حينما كان حديث العهد بالصحراء . فقد ضل طريقه وهو يبحث بين الجبال فى أثناء إحدى رحلات الاستكشاف . . وفقد اتجاهه وأخذ يتخبط بين السهول والأودية ، وأنهكه التعب واستبد به العطش . . وشعر بحلقه جافًّا كالخشب . وبأحشائه وكأنها بدأت فى الاحتراق ، فأخذ يصيح بأعلى صوته عسى أن يكون قريباً من أى إنسان ، ولم يسمع إلا صدى ندائه تردده الجبال . وبعد لحظات من الصمت سمع صوتاً عميقاً من البعد السحيق يأتى من سلاسل أخرى من الجبال أكثر بعداً ، سمعها ترجع نفس النداء . . وكأنها أصوات مئات من المردة والشياطين . . أوكأنها أصوات جوقة الفناء. وأبرزت الصحراء سحنتها المخيفة التى تكشر فيها عن أنيابها لكل من ينفد منه الماء . لكن حبه للبقاء شحذ فيه

عزيمة الإنسان ، فأخرج من جعبته صورة كانت قد التقطت لتلك المنطقة من الجو ، وأخذ يرجع النظر فيها إلى أن عثر على نقطة صغيرة سوداء . . موجودة وسط مساحة شاسعة بيضاء . فقام بقوة خارقة كأنه يتحدى بها الجبال ، وأخذ يمشي لايأبه لنداء العطش من داخل جوفه المحترق . . فقد كان الإصرار على البقاء يطغى على كل نداء . ونسى العطش وكأنه استغنى مدى الحياة عن الماء . وأخيراً وصل إلى شجرة مباركة هى تلك البقعة السوداء . . التى عثر عليها فى الصورة التى التقطت للمنطقة من السماء . وألقى بنفسه تحت الشجرة فاقد الوعى كالميت يتمتم بعبارات الشكر لله الذى بعثه من جديد وأنقذه من الموت بين الجبال .

وكل من له دراية بفن الملاحة فى الصحراء ، يعرف أن التائه فيها . . إذا وجد علامة واضحة على خريطة أو فى صورة جوية ، واستطاع أن يصل فى سفره إلى تلك « العلامة الأرضية » يمكنه أن يحدد اتجاهه ويصل إلى غايته بسلام .

* * *

فى وادى العطشان

وقبل شروق الشمس ، كانت السيارة تقف أمام خيمة « الميس » لكى أذهب بها إلى وادى العطشان على أن أعود فى المساء .

اسمه بالكامل . . « وادى الطرفاوى العطشان » . ويوجد تَوْءَمٌ لهذا الوادى يطلقون عليه « وادى الطرفاوى الريان » . وظاهرة الأودية التوائم معروفة فى هذا الجزءمن الصحراء الشرقية ، أى أنك تجد للوادى فرعين ، أحدهما يطلق عليه العطشان والآخر الريّان . ويرجع أصل هذين الإسمين إلى أن السيول الناتجة من مياه الأمطار التى تسقط مرة كل بضع سنوات . . تتخذ مجراها فى فرع دون الآخر ، فتزدهر الأعشاب والنباتات الصحراوية فى هذا الفرع . . وتزوره قطعان من الغِزْلان وتتكاثر فيه الأرانب الجبلية والثعالب ، وتحط فيه أسراب الطيور المهاجرة للرّاحة والاستجمام ، ويهاجر إليه عائلات من العبابدة ومعهم أغنامهم وإبلهم لترعى فيه .

وأما الوادى العطشان ، فلا تمشى فيه مياه السيول لارتفاع منسوبه عن شقيقه ، ويظل جافًّا قاحلا خالياً من السكان ، ومن الأثر البسيط للحياة الذى يتمتع به الوادى الريّان .

الطريق من وادى عسل إلى وادى العطشان ، طريق مرتجل خطته عجلات سيارات البعثة الجيولوجية لأول مرة ، وعلى الرغم من أنه غير ممهد فإنه أيضاً غير وعر ، تمشى فيه السيارة « اللاندروفر » بسهولة مارة بين تلال منخفضة من الاردواز .

ولا يقطع رتوب لون الاردواز الرمادى إلا تلال برتقالية اللون ذات أصل بركانى تشبه الأقماع . هذه التلال فى حقيقتها براكين صغيرة قديمة متجمدة ، انبثقت خلال عصور جيولوجية لاحقة بين تلال الاردواز .

وتمر بك السيارة فى عدة منعطفات قبل أن تصل إلى المعسكر التابع للبعثة والذى يشتهر بين العاملين . . والرعاة من العبابدة . . باسم « معسكر الريس عبد الشكور » .

* * *

تظهر خيام المعسكر فى فم الوادى من بعيد على هيئة بقع متقاربة بيضاء فى أرضية رمادية ، وتختبئ وراء التلال بعض البيوت الصغيرة . . يعيش فيها عائلات العبابدة من العمال الذين يعملون فى معسكر الريس عبد الشكور ، شيدها أصحابها من كتل من الصخر اقتطعوها من الجبل المتاخم . وتوجد بقعة بيضاء بعيدة عن هذا التجمع السكانى . . هى خيمة الريس عبد الشكور ، فالرجل على الرغم من أميته يعرف فن القيادة . . وسيكولوجية السيطرة على الرجال ، ووجود خيمته بعيدة عنهم هو اختيار مقصود ، فشئونه الشخصية وأكله وشربه ونومه من الخصوصيات التى لا يجوز أن يطلع عليها رجاله ، ولا يجب أن يظهر عليهم إلا فى هيبة الحزم كل

صباح . . يطلق صفارته وهو منتصب القامة فوق تل صغير ، وكأنها صفارة الإنذار وقت الحروب ، فيهب الرجال جميعاً فى لحظة واحدة ويقفون بين يديه ، فيقودهم بعد تحية مقتضبة إلى الجبل الذى يبعد مسيرة نصف ساعة من مكان الخيام .

يقولون : إنه كان قاطع طريق فى سالف الأيام ، وأعوانه من العمال . . رجالُ الليل السابقون ، يبجلونه ويقبلون يديه ، فهو كبير فى قومه ، عاقل ورصين . كل رجاله من أقاربه . . فهم إما أولاد إخوته أو أخواته ، أو أولاد أحد أبناء عمومته ، أو هم أزواج بناته . أو أزواج بنات إخوته أو أخواته . فهو بالنسبة لهم فى مقام الوالد والزعيم . والريس على كبر سنه متين البنيان ، قوى الشخصية ، هادئ الطبع ، يعرف آداب الكلام والإيجاز فيه . وللريس عبد الشكور دراية كاملة بفن القتال ، وله رشاقة النمر فى لعب العصا وتسلق الجبال .

ولا تقتصر شعبية الريس على رجال معسكره وعائلاتهم فحسب . . بل تمتد إلى الرعاة القريبين من المنطقة ، وإنّ له عليهم أفضالا يذكرونها له . فقد يسمح لهم بأن يبعثوا مع رجاله فى شراء الدقيق والسكر والزيت وربما القماش من القصير ومن قنا . وقد يسمح لواحد منهم أن يسافر بنفسه فى السيارة التى تذهب إلى وادى النيل كل شهر فيبيع جوال الفحم الموجود عنده ليشترى بثمنه هدايا من الريف لأهله وعشيرته . وما رفض طلباً قطّ لراعٍ يمر عليه ومعه نساؤه وأولاده . . سواء أكان هذا الطلب ماءً أو دواءً . وإن لدغ العقرب أو الثعبان أحد الرعاة أو ذويه أمر بتجهيز رجل من رجاله ممن يستطيعون إعطاء الحقنة إن كان المصاب من الرجال ، فإن كان من النساء فعليها أن تبتلع سائل الترياق الموجود فى الحقنة عسى أن يساعد فى تخفيف الداء .

وأما نزهته اليومية فهى قبل صلاة المغرب ، يمشى منفرداً أو يرافقه بعض من

بطانته فى وادى « أم جير » أو وادى « أم راجية » القريبين من وادى العطشان ، يمتعون أنفسهم بأول نسيم سارٍ بعد هجير يوم حار ، فإن رأى أحد رجاله يحتطب أو يرعى أغنامه فى وقت الفراغ . . زغده بعصاه المرشقة بالمسامير . . مُداعبةً منه ودليلا على الرضاء . وبعد صلاة المغرب يتناول عشاءه وحيداً ثم يصلى العشاء . وتبدأ سهرته أمام خيمته مفترشاً الأرض ومعه بطانته وبينهم « زردة » الشاى . . يتسامرون .

لا يقترب من هذه البطانة ولا يجرؤ على مجالستها أحد . . اللهم إلا إذا جاء شاكياً أحد زملائه . . أو طالباً إجازة ، أو راغباً فى الذهاب إلى طبيب القصير مريضاً أو متمارضاً ، وقد يحضر أحدهم لمجرد التملّق أو الإعراب عن الاحترام والولاء ، معبراً عن هذا بتعمير الجوزة أو تقديم الشاى .

ولم يكن اختيار أفراد البطانة مصادفة أو بناء على المزاج الشخصى للريس أو حسب مركز كلٍّ منهم الاجتماعى أو الوظيفى فقط ، بل إن هذا الاختيار يعبر عن نظرة سياسية حكيمة يحافظ بها عبد الشكور على « الوحدة الوطنية » للمعسكر ومَن حوله من سكان تابعين ، ويبعد به عن مظهر التحيز أو التعصب ، فالطوائف جميعها سواء ، يمثل كُلاًّ منها فى البطانة شخصٌ أو اثنان .

ويشترك أفراد البطانة فى صفة واحدة . . وهى أنهم جميعاً من كبار السن باستثناء شاب واحد من مركز « أبو طشت » بالصعيد . . اسمه عبد الشافى ، فهو يمثل رجل الدين فى وادى العطشان . يؤذن للصلاة ويؤم الناس ويخطب الجمعة . وفى شهر رمضان المعظم يصطف الناس خلفه لصلاة التراويح فى مكان فسيح . . بين الخيام ، وينبعث فى المكان أنساً دينيًّا وبهجة روحية ليس لها مثيل . وتجد الشيخ عبد الشافى يردد الأدعية بأنغامها المباركة بعد الصلاة ، ومن ورائه جميع الرجال بلا أى استثناء ومعهم الريس عبد الشكور ورجاله قطاع الطرق السابقون . وترجع

الجبال صدى دعائهم وكأنها تردد خاشعة نفس الدعاء ، بل ربما تردد دعاءها بخشوع أكثر من بني الإنسان ، فقد أبين أن يحملن الأمانة ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، يوم أن عرضها رب العرش ذو الجلال والإكرام . ويسرى هذا الصوت إلى أبعد من وادى العطشان . . فترجعه الجبال البعيدة أيضاً ، فتسمعه بعد لحظات من الصمت بعيداً . . خافتاً . . وأكثر شمولا ، وكأن الصحراء . . تسلم وجهها إلى الله في المساء . . تستغفره على جبروتها أثناء النهار .

والشيخ عبد الشافى يعرف القراءة والكتابة ، وهو بالتالى يمثل أيضاً فئة المثقفين في منطقة وادى العطشان . عنده كتاب كامل قديم ، ورقه أصفر اللون بهيج . . كله أدعية وابتهالات ، وكتاب آخر به حكم وعظات . . وقصص خفيفة مليئة بالعبر والإشادات .. يجتمع الناس حوله بعد الانتهاء من السحور . . في انتظار صلاة الفجر ، وعلى ضوء الفانوس يلقنهم العلم ويرشدهم سواء السبيل ، ويجيب على أسئلتهم في الدين والدنيا ، ويضرب لهم الأمثال ويحكى لهم من العبر ما يصبرهم على ما هم فيه من عذاب الحرمان والفراق ، ويبين لهم أن وجودهم في هذا المكان ، وتحملهم سعير الجبال ، هو من أجل تقدم وطنهم وقوة المسلمين ، وأن الله سيعوض المتقين منهم بأن يدخلهم جنات رطيبة تجرى من تحتها الأنهار . . فيها من الفاكهة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، فتطمئن نفوسهم من القلق ومن الاكتئاب الذى يجثم عليهم من طول البقاء في الصحراء .

والشيخ الطيب يجيد الحساب فيوزع على الناس أنصبتهم من الأكل الأسبوعى ويحسب لكل منهم ما يجب أن يتحمله من ثمن التموين وماله من باق . كذلك يقوم عبد الشافى بذبح الذبيحة وسلخها وتقسيمها بميزان من صنعه ووحدات من الأحجار ، وقد تكون هذه الذبيحة مشتراة من الرعاة ، أو تكون غزالة اصطادها الرجال .

ومن اختصاصات الشيخ أيضاً « الإفتاء » . فهذا الصيد حلال وذاك حرام ، لأن الأول آكل عشب وأما الثانى فهو من الحيوانات آكلة اللحوم ، أو أن الأول مشقوق الظلف والآخر غير مشقوق . وهذا الطائر من الجوارح فهو حرام .

والشيخ مؤمن بالعمل اليدوى ويرى أن المسلم الحق يجب أن يكون له مهارات عملية وإيجابية ، فقد كان نبى الله داود يأكل من عمل يده ، وهو يجيد أعمال البناء وقد أسهم فى تشييد البيوت الصغيرة فى هذا المكان ، ونحت بنفسه كهفاً فى الجبل ليجعله مخزناً للديناميت والكبسول ، وصمم له ترتيبات الأمان والتهوية حتى أصبح مخزناً قانونيًّا للمفرقعات .

* * *

ويمثل « الصعايدة » فى بطانة الريس عبد الشكور . . رجل مسالم هادئ الطبع نحيف الجسم أشيب الشعر . . اسمه « أبو قورة » . .

وقد اختير الرجل لهذا الشرف لسببين : أولهما ، أنه ينتسب إلى نجع فى الصعيد اشتهر بالعداء للنجع الذى ينتمى إليه الريس ، وبين النجعين ثأر قديم ، ووجود أبو قورة فى ندوة السهر كل ليلة يزيل عن بلدياته الشعور بالاضطهاد أو الإحساس بأنهم سكان من الدرجة الثانية تأتى فى المرتبة بعد الفئة التى تتشرف بالانتماء إلى نجع الريس . وفى نفس الوقت فإن عبد الشكور يشعر أن وجود مثل هذا الرجل المسالم فى بطانته وكونه يمشى خلفه . . يرمز للسيطرة على أهل النجع المعادى أجمعين .

وأما السبب الثانى فى اختيار الرجل لشرف عضوية البطانة فهو ابنه . . شقى خطير ، قاطع طريق يعملون له ألف حساب فى الصعيد ، تاب عن منهجه والتحق بالبعثة وأصبح من عمالها الرسميين . وقد أنجب أبو قورة ابنه هذا وهو فى الثالثة من عمره ! . . هكذا يقول الطبيب الذى قدر عمر الإثنين على مرتين منفصلتين ولم

يفطن إلى أن هذا ابن ذاك .

* * *

وأما ممثل العبابدة فى بطانة الريس عبد الشكور فهو « جاب الله » ، تجده صامتاً على الدوام ، فالعبابدة جميعاً كلامهم قليل ، ربما علمهم ذلك صمت الصحراء وربما تدربوا على هذه الخصلة كضرورة لعيشهم فى تلك البقاع . . لأن الصمت يقلل من الظمأ فيوفر بعض الماء . تجده جالساً فى الندوة مستمعاً فقط . . يدخن غليونه الذى صنعه بنفسه من مادة « الطلق » التى جلبها من تل قريب ، ويضع فيه « دخاناً » من النوع العادى الذى يستعمل فى السجاير اللف بدلا من الدخان المخصص للغليون .

جاب الله لا يعرف سنّه . وهو على كل حال قد جاوز السبعين ، وسوف يظل فى وظيفته بالحكومة حتى التسعين بفضل تقدير الطبيب . . الرجل الطيب الذى لم يشأ أن يقطع عيشه عندما أرسله رئيس البعثة إليه ليقدر عمره . وعلى الرغم من شيخوخته فهو صحيح الجسم . . خفيف الحركة . . ، نحيف مثل كل العبابدة ساقاه كالعصا رُفعاً وجفافاً . صحيح أن جاب الله من العبابدة لكنه آثر العيش فى رفاهية نسبية بعد أن تقدمت به السن ، فبنى لنفسه بيتاً من الحجر فى الصحراء بالقرب من مشارف قنا ، يذهب إليه كلما أخذ إجازة . وقد تزوج عروساً صغيرة فى الخامسة عشر من عمرها حتى تعيد إليه شبابه ! ، ولكى تؤنسه وتخدمه عندما يخرج إلى المعاش لأنه بلا ولد ، وهو سعيد بها كل السعادة ، وهى أيضاً سعيدة به وفخور بمهنته .

ومهنة الرجل فى الحقيقة مهنة بسيطة ولكنها مهمة . . هو « ولاع ديناميت » واجبه أثناء النهار يأتى بعد أن ينتهى دور الرجال من عمل خروم فى الصخر عميقة الأغوار فى الموضع الذى يوجد فيه خام اليورانيوم ، فيحشوها جاب الله بالديناميت

ويضع الكبسول . . ويصيح بأعلى صوته : « باروووود » . . حتى يأخذ الحذر كل من كان قريباً من مكان الخندق ، ثم يشعل الفتيل ويولى هارباً ليختبئ من الانفجار فى أول كهف قريب .

* * *

ومن بين أعضاء بطانة الريس عبد الشكور . . ممثلا للبحاروة ، السائق صبحى . . من أبناء دمنهور ، « نصف عاقل أو نصف مجنون » . . يعشق سيارته « اللورى » ويتغزل فيها ويعاملها بحب واحترام كأنها زوجه . لا يقبل أن يركبها سائق آخر عندما يكون فى إجازة فإذا لم يوافق رئيس البعثة على تعطيل السيارة انتظاراً لعودته ، ضحى الرجل بإجازته خشية أن يستعملها أحد فى غيابه . ويعتبر صبحى أن مجرد الإشارة إلى مثل هذا الاقتراح إهانة لشرفه .

وقد تخلقت شخصيته من كثرة عيشه فى الصحراء بنوع من الحرية لا يوجد فى مفهوم الحكومة تصل فى بعض الأحيان إلى درجة التمرد والفوضى ، فهو يستيقظ متى شاء وينام متى شاء ، ويسافر إلى قنا متى شاء ليجلب الطعام والماء لرجال المعسكر . هذه مسئوليته لا يحب أن يشاركه فيها أحد . بل إنه يستطيع بسيارته أن يعزّ منهم من يشاء بأن يأخذه لزيارة أهله فى الصعيد ، وأن يذل منهم من يشاء بأن يتركه هكذا بين الجبال حتى لوْحان ميعاد إجازته .

يهاب الريس عبد الشكور لسطوته ورجاله . . ولكنه يؤكد دائماً للناس أن صداقته مع الريس هى سر قبوله لأوامره ، لأنه حرٌّ فى سيارته ، وهو يطيع رئيس البعثة نفسه لا لشىء سوى أنه رجل طيب ، ولولا هذا لما نفذ له أى أمر . والريس عبد الشكور يعرف غيرته على سيارته ، فهو لا يرهقه بالأوامر والطلبات بل يحافظ على مشاعره تماماً فيا يختص بسيرتها ، ويكلمه عنها بتحفظ وكأنها حرمه ، لأن شخصية عبد الشكور هى شخصية الدكتاتور الداهية ، الذى يسوس الأمور

بهدوء وحكمة ، وهو من الكياسة بأن يظل مرهوب الجانب لا يعصى أحد له أمراً . فإن توقع أن أحد مراكز القوى مثل السائق صبحي سيرفض ركوب أحد الرجال معه ، لرفضه هو قبل أن يرفضه صبحي ، لأن صبحي لو عصى أمره بطريقة واضحة فإنه من المستحيل أن يتركه فى المعسكر ولو أدى ذلك إلى أوخم العواقب .والريس يعرف أنه على الرغم من أن صبحي على بينة بقدرته على البطش به فإنه لا يستبعد أن يعصيه فى لحظة جنون ، لو ظن أنّ أحداً تدخل فى الشئون الشخصية لسيارته . . وأهان شرفه ، وقد استبد به الجنون ذات يوم وعصى أمر رئيس البعثة ذاته ، وهدد بأن كل من يقترب من سيارته المحبوبة سوف يهشمه بها ، وقد دفع الثمن بعد ذلك غالياً ، بأن نفي إلى وادى أبو جرادى شبه وحيد لمدة عام ، وفرقوا بينه وبين سيارته ، بل أمروا سائقاً غيره أن يركبها أمام بصره إمعاناً منهم فى امتهان كرامته .

وإن أراد أحد أن يتملق (صبحي) ، فعليه أن يداعب القط « مشمش » فإن كانت السيارة بديلا لزوجه فالقط يعوضه عن ابنه ، يحضر له الهدايا من قنا كل شهر ويسلق له البيض فى الفطور ، ويطبخ له اللحوم ، فى الغداء والعشاء . وعندما يأتى أحد الجيولوجيين لزيارة وادى العطشان فلا بد أن يَسْتَحِمَّ القطُّ ، ويمشط له شعره ويعمل له الفرق ويذهب به ليقابل الجيولوجي الضيف أو رئيس البعثة نفسه . وقد يُصادفُ أن يكون مزاج رئيس البعثة معتدلا فيداعب القطَّ ، فتكون سعادة صبحي لا نهاية لها ، فهى علامة على رضا الرئيس عن صبحي وعن القط ، ويقابل هذا بدعاء من الأعماق لرئيس البعثة الرجل الطيب ، وأن يبقى الله له أولاده .

* * *

مجتمع العبابدة

على الرغم من قلة عدد العبابدة فإنهم منتشرون أساساً فيما يعرف « بالصحراء الشرقية الوسطى » وهى تلك المساحة من الصحراء المصرية المحصورة بين خطى العرض ٢٤ْ ، ٢٧ْ شمالاً ، والواقعة بين وادى النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً .

والعبابدة يعيشون أساساً على الرعى ، يجوبون أودية تلك المنطقة بحثاً عن العشب الناتج من مياه الأمطار النادرة . ولهم مورد آخر للماء عبارة عن آبار ارتوازية قليلة مثل بئر العطشان وبئر الحربية وبئر الحمامات ، وبين كل منها والأخرى مسافة طويلة .

ويتميز جسم الرجل العبادى والمرأة العبادية بالنحافة . ويرجع هذا إلى سببين : أولهما ، أن بيئتهم تفرض عليهم نشاطاً جسمانيًّا طول اليوم للرعى والبحث عن الجمال الضالة والأغنام الشاردة والاحتطاب . وأما السبب الثانى ، فهو ندرة شرب الماء ،



وعائلات العبابدة . . على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم . .
سعداء بالحرية والانطلاق



وقلة الطعام . . فهم يعرفون أن الزائد منه يؤدى إلى احتياج أكثر للماء .

وقد لاحظت أن نسبة المعمرين منهم كبيرة ، وأن تعاقب السنوات لا تظهر بصماته بسهولة على ملامحهم ، فهم دائماً فى شباب وحيوية ، حتى من جاوز منهم مائة سنة . . عنده سرعة فائقة فى المشى ، وخفة يحسده عليها الظبى فى تسلق الجبال . وكثيراً ماكنت ألاحظ أيام معيشتى فى تلك البقاع حِدّة نظرِ العبادى حينما يمشى معى فى الصحراء ، فقد يحدث أن يرى غزالة جالسة تحت شجرة بعيدة لا يستطيع تمييزها أى واحد منا نحن سكان المدن أو سكان الريف . . لا الغزالة ولا الشجرة نفسها ، وبمنظار الحقل المعظم كنت أتحقق من صدق رؤيته ، بل يظل يشرح تفاصيل حركتها وكأنه هو الذى ينظر خلال المنظار . وقد يكون للصحراء نفسها فضل كبير فى حدّةِ النظر التى يتمتع بها العبابدة لأنه لا يوجد ما يعوق العين عن امتداد الرؤية .

والبريد فى بلاد العبابدة وسيلته الرعاة ، فكل راع مسئول عن توصيل الرسائل من أسرة إلى أسرة . وهذا واحد منهم يمر ببعيره على خباء . . يعرف سلفاً أن به عيال فلان ، فهم يسكنون بجوار هذه البئر فى تلك الأيام . والعيال هنا عبارة عن الزوجة منفردة أو الزوجات . . أو الزوجات والأولاد ، فيحط بجوار الخباء . وتستقبله النسوة مرحبات ، لا يمهلنه حتى يرتاح أو ينيخ الجمل . . أو يزيح عن ظهره « السراقين » أو يقدم له الماء ، فهن على أخبار الحبيب الغائب متلهفّات ، يسألنه عن مكانه وعن ميعاد عودته ، فيطمئنهن أنه بخير ، فقد قابل فلاناً فأخبره أنه التقى بفلان الذى عرف منه أنه قابل رب الأسرة وأنه سيعود إلى بيته هنا بعد سبع ليال ، وأنه يبعث إليهن بالسلام . وبعد الراحة وتناول العشاء . . يجلسن حوله فى نور القمر أو النجوم وبينهم « راكية » الشاى . . يحكى لهن الطرائف وأخبار العبابدة فى كل مكان .

فهذه فلانه بنت فلان قد جاوزت الاثنى عشر عاما ، لذلك فقد خطبت إلى ابن خالها ، أمهرها بعيراً . . حمله بالدقيق والقماش والسكر والشاى ، وكذلك ثلاث نعاج ، وسوف يتم الزفاف فى وادى « أراك » بعد ثلاثة أشهر ، وأن زوجكن الغائب سيسافر فى الميعاد لحضور الاحتفال الذى سيستمر بضع ليال ، وسترافقه من بينكن زوجتان ، وأما الباقيتان فسوف تمكثان هنا لرعاية شئون الأطفال وشئون الأغنام ، وكتعويض لها فإنه سيأخذهما معه فى الموسم . . لزيارة ضريح سيدى أبى الحسن الشاذلى . . إذ إنه يعتزم الذهاب إلى هناك هذا العام . . لتبادل الفحم بالأغنام .

وأخذت النسوة يمزحن مع بعضهن ، وكل واحدة تؤكد أنها سيقع عليها الاختيار لحضور الزفاف فى وادى أراك .

وقالت إحداهن

– والله يا عمى الشيخ إذا وقع اختياره على . . لأحضرن لك معى هدية من هناك .

– وماذا يوجد يابنيتى فى وادى أراك . . . سوى أعواد الأراك ؟ (السواك) . لعلك تحضرين لى معك كمية منه . . فأدعو لك بالخير .

ويقول لهن :

– ألم تعرفن بالخبر السعيد ؟ لقد رزقت حفيدتى بمولودة ، أطلقنا عليها اسم « فاطمة » . . لتحل البركة للعائلة كلها . . حينما يكون فيها سمية بنت رسول الله .

ثم يلبى طلبهن بأن يتذكر ما عنده أيضاً من أخبار فيقول :

– هل تتذكرن جَمل فلان الذى ضلّ طريقه منذ عام ، ودخل الجبال الصخرية التى يتعذر فيها تعقب الآثار ؟ . لقد عثر عليه فلان فى خور ضيق عند مدخل وادى « أم جروف » . . هيكلا عظميًّا . . تبق من الثعالب والحشرات . .



والرجل العبادى يشارك نساءه أعمالهن . . فهو يحسن تشييد موقد يشبه « الكانون » ، وخبز الرقاق وطهى اللحوم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطيور الجوارح .

وأما عن أخبار الوفيات . . فقد توفى الشيخ فلان رحمه الله ، ووهبنا مثل عمره . . آمين ، فقد عاصر فى طفولته غزوات قبائل المعازة . . وعمل فى مناجم الذهب فى الفواخير التى كان يديرها الخواجات ، وله من الحَفَدةِ ما عمر به الاودية من « مقتل محمد » شرقاً إلى ما يقرب أرض الريف الخضراء من جهة الغرب .

وتترحم عليه النسوة ، وبعد البكاء تسأله إحداهن :

– ترى فى أى مكان وافته المنيّة ؟

– فيقول الرجل :

– سبحان من له الدوام . . لا تدرى نفس بأى أرض تموت . . لقد جعلوا قبره عند جبل « أم صافى » تحت الشجرة البحرية حيث أقام فى آخر أيام حياته ، وأن القبر وضعوا عليه رايات زاهية اللون من قماش عثروا عليه بين أشياء المرحوم . فقد اشتراها لنفسه مع الكفن حينما كان فى مدينة « الأقصر » منذ عامين واستبقاها معه إلى أن حان أجله .

وتسأله النسوة :

– ترى من قام بدفنه ؟ ويقول الرجل :

– مرَّ به عبد الرحمن بن جبريل فوجده فى النزع الأخير ، فلم يشأ أن يستمر فى سفره والشيخ على تلك الحال ، فبقى بجواره يخدمه لمدة ثلاث ليال . . ينتظر خروج السر الإلهى ليصلى عليه ويدفنه بنفسه ويدعو له بالرحمة ويبلغ الأقربين بمكان قبره . . ويبلغ العبابدة كلهم متى سمحت بهذا ظروف الرحلات .

* * *

وعائلات العبابدة – على الرغم من قسوة الطبيعة عليهم – سعداء بالحرية

والانطلاق والسفر بين الأودية بحثاً عن العشب والرزق والماء ، بل إنهم يشفقون علينا من صعوبة معيشتنا فى المدن حينما يسمعون عن وجود مساكننا بعضها فوق بعضٍ بالعشرات ، وأكثر ما يستعصى على خيالهم تصوره هو كيفية توزيع الماء على كل هذه الحشود الهائلة من البشر فى المدينة .

ويحمدون ربهم على أن بلادهم واسعة فيها متسع لكل ساكن وأنه سبحانه وهب لِكل زوجين منهم بيتاً مستقلاً يستطيع أن ينقله فوق بعيره حيثما شاء .

والرجل العبادى يشارك نساءه أعمالهن فهو يحسن مثلهن تشييد موقد يشبه « الكانون » وخبز الرقاق ، وطهى اللحوم إن حل ضيف أو مرضت عنز أو أصيبت نعجة . وهى أيضاً تحل محله إن كان مسافراً . . ترعى الإبل والأغنام ، وتجيد الاحتطاب متسلقة الأشجار برشاقة لاعبات الباليه ، وتعرف أسماء الأودية والجبال ، وتهتدى فى طريقها بالجبال الشامخة وبمواقع النجوم ، وتصنع الثياب لزوجها وتغزل صوف النعاج والجمال . . وتحلى ملابسها بجلد الثعلب أو الأرنب أو الغزال ، وترتق القديم من الملابس أو « تقيفها » ملابس للأولاد .

وهى مخلصة لزوجها . . تتزوج عادة وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، وقد يكون زوجها صبيًّا فى مثل سنها ، أو شيخاً فى عمر أجدادها ، وفى الحالين تجد ولاءها له وإعجابها به يفوق الخيال . وهو إن مات لا تفكر فى الزواج من غيره قبل مرور أعوام طويلة . . وباضطرار تفرضه عليها البيئة الصحراوية وضغط اجتماعى شديد وتظل حافظة لعهده وذكراه مع الزوج الجديد . . الذى يشجعها على هذا ويشاركها احترام الراحل الكريم ، ويذهب بها لزيارة قبره فى الوادى الذى وافته المنية فيه مهما طال السفر .

ومعيشة الزوجات واحدة . . يتعاونَّ فى الشئون اليومية وينتقلن فى جماعة واحدة . وعندما يعود ربّ الأسرة من سفره يحل العيد بينهن . . فتلبس كلّ منهن

أحسن ما عندها من ثياب ، وتتحلى بما قد يكون لديها من أقراط أو خواتم أو أساور من ذهب أو من الأحجار الكريمة كالفيروز والياقوت والزمرد . . التى جلبها الزوج من وادى الجمال وغيره . . وشكلها بنفسه لتصبح زينة للنساء .

وهى شديدة التحفظ . . ليس فى الجوهر فقط وإنما أيضاً فى المظهر . . الذى تعتبره لا يتجزأ أبداً عن الجوهر ، فإن مرَّ بها أحد الغرباء أو سمعت صوت سيارة أدارت ظهرها وجلست القرفصاء ووضعت رأسها بين ساقيها ورمت غطاءً على جسمها كله فظهرت وكأنها كومة صغيرة سوداء . ولا تظن أن نساء العبابدة لهذا متزمتات أو رجعيات . . هذا فقط مع الغرباء ، فحياة العبابدة الاجتماعية لا تقل فى تحررها عن أكثر المجتمعات حضارة ، فكما قلنا . . هى تقابل الرجال من العبابدة وتناقشهم فى كل شأن من شئون الحياة . وتلتقى الفتاة أو المرأة المخطوبة بخطيبها أمام الأهل أو على انفراد ، لا يوجد أى قيد عليهما . . يرعيان الغنم معاً طول النهار ، ويجريان ويلعبان ويتسامران . . فى أى فج أو مسلك من مسالك الصحراء ، وقد يسافران معاً من بئر إلى أخرى .

والثقة بين العبابدة كبيرة . لا يوجد عندهم شىء اسمه الخيانة إلا فى النادر من الأجيال ، ويستبعد الخائن من مجتمع العبابدة ، لأن طبيعة البيئة تحتم عليهم التعامل بثقة كاملة ، فكل أسرة كما بينا تعيش فى عزلة ، وغياب رب الدار معتاد ، وبقاء النساء وحدهن فى منطقة شاسعة جبلية وحاجتهن إلى سؤال الرعاة فى أثناء غياب الزوج أو الأب يحتم التعامل بينهم بالأمانة والشرف ، فمن يخرج على هذه الأخلاق ينبذه المجتمع العبادى ، ويمسى شريداً حتى يموت وحيداً تحت سفح أى جبل من الجبال .

* * *

وللعبابدة نوادرهم التى تحكى فى مجالس السمر الخاصة بهم ، وتعبر عن البيئة

المحيطة ، وعن الاختلاط بعضهم بالغرباء الذين يجيئون إلى بلادهم للبحث والتنقيب ، فتجد الظرفاء منهم يقلدون كلام القاهريين ولهجة أهل الصعيد ، ويتندرون على بعض تعبيراتهم وكلماتهم ، ويسخرون من تسميتهم بعض الألوان بغير مسمياتها ، فاللون الذى يسميه العبابدة لبنى . . يقول عنه القاهريون أزرق ! فأما اللون الأزرق يقولون عنه أسود !

ويقصون على النساء حكايات عن طمع بعض الغرباء ، فهذا رجل منهم جاء إلى حمدان العبادى وأخذ يشكو له قلة المال وكثرة العيال ، ويرجو حمدان أن يعينه على هذا البلاء ، فيتعجب حمدان كيف يتسنى له ذلك وهو رجل فقير ؟ ويتضح أن أحد أشقياء العبابدة أوهم الرجل الغريب أن حمدان يعرف أماكن الذهب فى الجبال التى تخلفت فى الموقع الذى كان يستغله الخواجات منذ زمن بعيد ، وأنه لا يرضى أن يأخذه لنفسه أو يبوح بسره لأحد .

ويتندرون على تلك المرأة التى عاد زوجها من سفر طويل ذهب فيه إلى الصعيد ، ودخلت خباءه فوجدت على الأرض ما يشبه الرأس المشقوق المخضّب بالدماء . . فصرخت وفزع إليها الزوج ، وضحك من جهلها وأفهمها أنها « بطيخة » تؤكل فتروى الظمأ ولها طعم لذيذ .

وهذا الشخص الذى عين كدليل فى إحدى البعثات التى تأتى إلى بلادهم وبها غرباء ، وعاد يحكى للأهل والأصدقاء كيف أنه وجد عندهم صندوقاً يتكلم أحياناً بصوت الرجال وأحياناً يغنى كالنساء ! .

وقصة هؤلاء الرجال الذين ولدوا فى الجبال ، وعاشوا فيها حتى بلغوا سن الشباب ، ولم يتصلوا بأهل الريف قط ، فهم لا يفقهون أى شىء خارج المجتمع الصحراوى العبادى ، صدر أمر من شيخ العبابدة بأن يمثلوا بين يديه فى القصير

ليقدمهم إلى الحكومة فهم خارجون على القانون ، لأنهم لم يؤدوا الخدمة العسكرية . فقبضت عليهم الشرطة وقدموا إلى محكمة الغردقة ، ووجه إليهم القاضى سؤاله :

– ألا تعرفون أيها الناس أننا فى حالة حرب مع إسرائيل ؟

فلم يفقهوا مقصده . . واكتشف أنهم لم يسمعوا قطّ عن إسرائيل هذه . فسألهم القاضى : فى أى مكانٍ نحن الآن ؟

قالوا : فى بيت القاضى .

فتعجب القاضى وأشار إلى صورة الرئيس جمال عبد الناصر المعلقة خلفه قائلا :

– ومن هذا ؟

فارتبكوا ثم أجابوه :

– أليس هذا هو والد القاضى ؟

واستطاع المحامى الأريب أن يكسب عطف المحكمة عليهم حينما قال :

– ليس هذا مجرد مثال يا حضرة القاضى للجهل بالقانون ، ولكنه دليل على أن الدولة قد جنت على هؤلاء المواطنين ، فهى لم تقدم لهم أى نوع من الرعاية الاجتماعية ولم تتذكرهم يوماً واحداً طول حياتهم . .

والمحامى على حق ، فهؤلاء الناس مواطنون مصريون من الناحية النظرية فقط ، والشيء الوحيد الذى يربطهم بمصر هو أنهم يعيشون ضمن حدودها السياسية .

وقد نشر « الأهرام » فى ذلك الوقت كلمة لى . . كتبتها لتعبر عن حاجة هؤلاء المواطنين المجهولين . . للرعاية الاجتماعية هم وأمثالهم ممن يعيشون فى صحارى مصر . . ولاندرى عنهم شيئاً .

تقول الكلمة :

المسح الاجتماعى للمناطق النائية

«كانت حدود بلادنا من قبل حدوداً سياسية فقط ، لأن العزلة التى عاش فيها سكان المناطق النائية قد فصلتهم تماماً عن سكان المدن الكبرى والريف . وسكان الصحارى ما زالت لهم تقاليد قديمة لا يستطيعون بسببها أن يصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه إخوانهم فى المدينة والقرية . ومن واجب معاهد البحث الاجتماعى أن تبسط اهتمامها على الصحارى المصرية فتدرس تقاليد هؤلاء المواطنين ، وتعلمهم وتأخذ بيدهم نحو تطور ورقى سريع . ومن واجب الباحثين الاجتماعيين بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية ومعهد الخدمة الاجتماعية والجامعات أن ينتشروا بين البدو فى الصحراء الغربية ، وبين العبابدة وسط الصحراء الشرقية وقبائل « البشاريين » جنوبها ، وألا يجعلوا كل مجهودهم للمدينة والريف .

وقد يسأل سائل : وما هى الطريقة التى ينتقل بها الباحث الاجتماعى عبر جبال الصحراء الشرقية بضع مئات من الأميال ؟ ! وكيف يعبر بحر الرمال الأعظم بالصحراء الغربية للوصول إلى هدفه ؟

وأين الإمكانات التى تكفل له السلامة ؟ !

وأجيب بأن البعثات الجيولوجية تغطى الصحارى المصرية كلها ، وهى قادرة على استضافة الباحثين الاجتماعيين ومعاونتهم فى أداء واجبهم الإنسانى نحو بنى وطنهم الذين حرمتهم الظروف الجغرافية من التمتع بحقهم فى الحياة قروناً طويلة».

* * *

وبسبب قسوة البيئة الصحراوية ، نجد أن بعض الأسر العبادية نزحت إلى قرى

الصعيد غرباً أو إلى مدن البحر الأحمر المتاخمة شرقاً مثل سفاجة والقصير أو إلى بلاد صغيرة نشأت على أكتاف الاكتشافات والمناجم ، مثل « حماضات » « والحمراوين » ، وهى قرى صغيرة ظهرت فى الصحراء الشرقية قريبة من مناجم الفوسفات ، بدأت بمساكن للجيولوجيين والمهندسين والعمال الذين جاءوا لإدارتها وعائلاتهم ، ثم ازدادت مقوماتها بأن فتح أحدهم فيها دكاناً غير مرخص ، واستقر غيره فى الجامع كواعظ وإمام ، ثم ظهر فيها ما يشبه المدرسة والوحدة العلاجية وهكذا يستمر نمو المرافق حتى تصبح القرية كاملة أو على وشك الاكتمال .

ويشجع العبادى على النزوح ومعه عائلته إلى تلك القرى المنجمية أو البلاد الواقعة على ساحل البحر الأحمر أو مشارف الصعيد . . اكتسابه مهارة تعينه على المعيشة فى البيئة الجديدة ، إذا تعلم مهنة عصرية فى أثناء عمله فى إحدى البعثات الجيولوجية أو المناجم ، مثل مهنة مساعد ميكانيكى أو مساعد سائق أو ولاّع ديناميت أو « عطشجى » لأحد قطارات المناجم . وتجد هؤلاء العبابدة النازحين يكونون لهم تجمعات صغيرة على مشارف تلك البلاد ، فالقصير يوجد عند حدها الجنوبى تجمع للعبابدة وكأنه حى خاص بهم أو ضاحية صغيرة ، وكذلك قنا . . وحماضات بلد الفوسفات التى لم تزل فى دور التكوين .

وينظر سكان الجبال من العبابدة الرحل . . إلى هؤلاء الذين استقروا بالقرب من مشارف البلاد على أنهم مرفهين وتأنف الفتاة العبادية التى تعيش الحياة الصحراوية بقسوتها الكاملة أن تقترن بشاب من بين أولئك المترفين .

* * *

صالون فى الصحراء

لا أظن أن هناك ندوة تجمع بين أفرادها من أنواع التناقض مثل ندوة الصحراء . تلك الندوة التى تعقد كل مساء بدون ترتيب سابق فى إحدى الخيام شتاء ، وأما فى الصيف فإنها تعقد على الأرض . . فى الهواء الطلق بأى جزء من أجزاء المعسكر يكون ملتقى لتيارات لطيفة من الهواء .

ويرجع اهتمامى بما يدور من حديث فى هذا الصالون – إن جازت التسمية – إلى أن الموجودين فيه يمثلون عينات عشوائية من مجتمعات شتى ، ويرسم حديثهم صورة فريدة لالتقاء هذه المجتمعات . . لقاء لا يمكن حدوثه إلا فى تلك المنطقة من الصحراء . ففى الندوة تلتقى تقاليد أهل الوجه البحرى بأهل الصعيد . . لتتفاعل مع عادات أهل تلك البلاد . . بلاد العبابدة . وتختلف درجات العلم والثقافة عند الموجودين ، فمنهم من لا يعرف القراءة ، ومنهم من يعرف القراءة دون الكتابة ،

ومنهم من حصل على الماجستير أو الدكتوراه فى العلوم الذرية . وقد يدور حوار شائق بين رجل لم يبرح بلاد العبابدة قط ، ورجل جاب قارات العالم وقضى معظم حياته فى أكبر عواصمه .

وتجد سيرة المرأة تشغل الجانب الأكبر فى حديث الصالون .

ومعظم ما يقال عنها . . يحكى من الأساطير كنماذج مجردة لغدر النساء . . ونماذج مقابلة لإخلاصهن . وتضرب الأمثال على الخبث الذى يتسم به بعضهن . . والالتواء والمكر فى تصرفاتهن مع الرجال . وأن من تخون زوجها وهو غائب يبحث عن رزقه . . يعذبها الله عذاباً شديداً حتى ولوكانت الخيانة عبارة عن كلمة أو إشارة أو نظرة أو ابتسامة أو فى الخيال . . أو حتى فى المنام .

ويقول أحدهم :

– إن الإخلاص يا رجال . . موجود أيضاً بين النساء . .

ويبرهن على ذلك بأمثلة حقيقية عن امرأة كان يعرفها ، أحبت زوجها الذى مات فى شبابه فظلت حافظة لعهده . . وفية له فى مماته كما كانت فى حياته . . وحرمت نفسها نعيم الدنيا . . وزهدت الحياة نفسها فزهدتها الحياة . . ولحقت به راضية .

ويؤيد أحد المثقفين هذا الاتجاه فى الكلام ، فيطمئن الموجودين على أن الدنيا بخير ، وأنه يعتقد فى وجود بنت الأصول ، وأن على الرجل أن يبحث عنها إلى أن يجدها ، ويروى فى بساطة قصة « أوديس » الذى تاه فى عرض البحر ، وانتظرته زوجه « بينيلوب » . ورفضت الزواج من غيره ، واستطاعت وهى الفتاه الصغيرة أن تقاوم إمكانات دولة بأكملها ارادت أن تجبرها على الزواج من غيره ، إلى أن عاد بعد عشرين عاماً ليجدها مازالت فى انتظاره . . صامدة بقوة الحب ضد مؤامرات رجال الدولة وضغوطهم . واعتبرها الأقدمون نموذجاً للإخلاص فأطلق الانجليز

اسمها على كل امرأة مخلصة وأصبحت كلمة Penelope في الإنجليزية تعنى المرأة الطاهرة .

ويعرج الحديث على المرأة فى القاهرة . .

ويتعجب البعض مما يسمعونه عن الحرية الموجودة لديها . وأنها تشغل مناصب فى الحكومة ، ولها مرءوسين من الرجال ! ، توجه أعمالهم وتعاقبهم حينما يخطئون ، لذلك فلا سلطان لزوجها عليها إلا فى حدود . وقد يصل تعليم الفتاة هناك إلى أعلى الدرجات ، ومنهن من فاقت رتبتها فى الحكومة رتبة زوجها ، ومنهن من لها فى الدولة كلمة مثل كلمة رئيس البعثة ذاته . ويصفون الأزياء الحريمى الجريئة التى تلبسها النساء فى القاهرة ومنها « الميني جيب » ويضرب الرجال كفًّا بكف متعجبين. ويقول رجل منهم عاد منذ يوم واحد من مأمورية له بالإسكندرية :

– وماذا يكون قولكم لو رأيتم النساء على ساحل البحر المالح ؟ إنهن عاريات تماماً إلا من لباس يقال عنه المايوه ، يجلسن هكذا بجوار رجال عراة مثلهن يتسامرون . . لا يشعر أحد منهم بالخجل . ولقد رأيت بنفسي رجلا وامرأة يسبحان مع بعضهما ، وقد أمسك الرجل بيدها وغطسا معاً ، ثم وقفت المرأة بعد هذا على كتفه وقفزت بدماغها إلى الماء وهى تضحك ضحكة تتفتت من سحرها هذه الصخور .

ويستنكر البعض أن يقبل رجل ظهور امرأته عارية أمام الناس . .

ويقسم آخر أنه رأى بنفسه امرأة . . عارية إلا من هذا المايوه . . خرجت من الماء كعروس البحر وفتحت سيارة ملاكى زرقاء ودخل زوجها إلى جوارها ، وأظنكم لن تصدقوا من كان يقود السيارة ، إنها المرأة والله العظيم . ويستغفر الناس ربهم قائلين إن هذا من علامات الساعة . . فقد وصلنا إلى الزمن الذى تنقلب فيه القيم وتقود المرأة زوجها . إن الرجل أيها الناس لابد أن يكون هو القائد ، سواء فى

دروب الحياة أم فى شوارع المدينة .

* * *

وبذكر « علامات الساعة » يتحول الحديث إلى الدين . وحتى فى هذا الحديث يواصلون كلامهم عن المرأة من خلال الدين . فالآيات التى تعالج الشئون الشخصية للنساء . . تشغل جزءاً كبيراً من كلامهم ، كذلك الآيات التى تنظم العلاقات معهن مثل أحكام الزواج والطلاق . وسورة النور يحفظها الكثيرون فهى تعالج مشكلة الزانية والزانى ، وتجدهم يتركون التعليق على خطيئة الزانى ، ويناقشون عقاب الزانية . وإذا زنت امرأة متزوجة وجب إقامة الحد عليها . . « حد الرّجم » ، وإن الآية التى نصت على ذلك قد نُسخت قراءةً فقط ، لحكمة يعلمها الله ورسوله والراسخون فى العلم .

وكلما ذكرت خطيئة المرأة تجد السخط والتوتر يخيمان على الحديث بشكل ملحوظ ، وربما يصل التأثر ببعضهم إلى درجة يتهدج فيها صوته من أثر الانفعال ، وكأن الحوار يدور حول امرأة بذاتها . ولو وجدوا حين ذاك أشدّ من الرجم عقاباً لأنزلوه بها . ويطلقون لخيالهم العنان . . ويحكون أنواعاً غريبة من العذاب سوف تلحق بها حتماً فى الدنيا والآخرة وإن الله لو غفر للناس ذنوبهم وخطاياهم ما غفر لامرأةٍ تخطئ . . وزوجها غائب يبحث عن رزقه ، ويتعذب فى سعير الجبال .

وينتهى الحديث الدينى بهم إلى قصص مختلفة من القرآن الكريم ، ومن القصص التى تمثل الصدارة فى تلك الندوة قصة موسى والخضر عليهما السلام . ويجتهدون فى استنباط الحكمة والموعظة وعبر الحياة . وأولها أن الإنسان لا يعرف من أمر نفسه شيئاً ، فربما نجلس هكذا آمنين . . وتأتى سيارة من العمران تحمل إلى أى رجل منا برقية تنبئه بموت أقرب الأقربين . وكلٌ له برقية آتية فى يوم لا ريب فيه .

* * *

ويتطرق الحديث إلى الهوايات . .

وأكبر هواية عندهم . . « الغيبة والنميمة » . .

نجدهم يغوصون فى الشئون الشخصية لزملائهم من الذين لم يحضروا الندوة بدرجة معيبة .

وقد لاحظ بعض الأدباء والمفكرين هذه الخصلة فى المجتمعات الصغيرة المنعزلة ، ومن بينهم . . الأديب الإنجليزى « سومرست موم » ، ووصفها فى كثير من أعماله .

وتفسيرى لهذا أن أخبار المجتمع الصغير الذى يعيشون فيه . . تحل محل أخبار المجتمع الكبير الذى يعيش فيه الشخص العادى ، وبمعنى آخر فإن أخبار الزملاء تعوض عن أخبار السياسة وأخبار الفن والأدب فى المجتمع الكبير. فالزملاء القليلون يشكون « عمليًا » المجتمع الذى يعيشون فيه بأكمله .

والواقع أن عادة الكلام عن « الغير » . . موجودة فى أخلاق الإنسان ، سواء الطيب أو اللئيم ، لكنها مسألة نسبية . أليس بعض الكلام عن أخبار نجوم المجتمع الكبير . . غيبة ونميمة ولكنها توصف عادة بأنها ثقافة . . ومعرفة ببواطن الأمور ؟ ! . لماذا نظلم إذن هؤلاء المنتدين فى صالون الصحراء ؟ . إنّ هذا الصالون يمثل ندوة فى مجتمع صغير ، وأخبار أفراده ثقافة ومعرفة بالنسبة لمجتمعهم المحدود والدليل على هذا أنهم حينما تصلهم الصحف بعد طول انقطاع ، تجدهم ينصرفون عن الكلام فى شئون زملائهم . . إلى الحديث عن شئون المجتمع الكبير وسيرة نجومه البارزين .

وهم إذا تكلموا عن نجوم المجتمع الكبير تجدهم متطرفين فى أحكامهم إما متحيزين لأحد منهم بالشكر وإما مهاجمين له بقسوة . وعادة ما يكون وراء حكمهم المتطرف شعور بأن هذا المسئول يقدر كفاح العاملين فى المناطق النائية أو أنه

يجهل أحوالهم .

وصاحب « نحو النور » له منزله كبيرة فى نفوس سكان تلك المنطقة من الصحراء المصرية ، فقد وصفهم ذات يوم بأنهم « القلب النابض للوطن » . .

حدث هذا حينما طالب المسئولين فى عموده اليومى الأغر بتقوية محطات الإرسال التليفزيونى فى محافظات الوجه القبلى وقال : إن سكان الصعيد فى حاجة أكثر من غيرهم إلى برامج التليفزيون . فكتبت إليه خطاباً شرحت له فيه أن محافظة البحر الأحمر – تلك المحافظة الفتية التى تمثل كفاح بلدنا الصامت – فى حاجة إلى الإرسال التليفزيونى أكثر من سكان الوجهين القبلى والبحرى معاً ، لأن المغتربين فى صحرائها – سواء كانوا من العاملين فى المناجم أو البعثات الجيولوجية – فى حاجة ماسة إلى الترفيه ، وأما العبابدة سكان هذه المنطقة الأصلية فإنهم لم يروا التليفزيون قطّ ، وربما لم يسمعوا به حتى الآن ، ويعيشون فى عزلة تامة عن المجتمع المصرى . ونشر كلمتى كاملة وعلق عليها تعليقاً يحفظونه له حتى الآن .

وبالفعل تساءل الكثير منهم يوم أن نشرت هذه الكلمة . . وما هو التليفزيون ؟ ولما عرفوا ماهيته . . أكدوا أنها القيامة آتية لا ريب فيها .

ويلى تلك الهواية ، هوايات الصيد والتحنيط وتربية القطط والكلاب . . وقد يكون الغرض من الصيد هو الأكل ، أو يكون وسيلة إلى هواية أخرى هى التحنيط .

والصيد نوعان : صيد البر ، وصيد البحر .

وفى المعسكر تجد أمام كل خيمة قفصاً به فتات من الخبز . . وعلى القفص غطاء مرفوع مثبت بحبل يمسك به الصياد ويجلس بعيداً فى ظلال الخيمة . . إلى أن يدخلها حمام « القطا » وهو جيد اللحم كغذاء فيشد الحبل ليغلق القفص ويحبس القطا .

كما يوجد «فخ» خلف الخيمة لصيد الأرانب الجبلية. وربما يصبح النهار على ثعلب نحيف فى الفخ بدلا من الأرنب، فالثعالب فى تلك المنطقة مهما كبرت لا يزيد حجمها كثيراً على حجم الأرانب ربما بسبب قلة الماء والغذاء.

وأما صيد الغزال فلا يكون بالبندقية، فهم جميعاً ليس لديهم سلاح. وما فائدة السلاح فى هذه الصحراء؟. لا يوجد هناك لصوص.. ويندر وجود الوحوش، لعدم توفر الماء. ووسيلة صيد الغزال هى السيارة، يجرى وراءها السائق إلى أن يدركها النصب فتقف مستسلمة، فيمسك بها من قرونها، ويدير رقبتها لزميله ليذبحها. ومنها ما يكتب لها الإفلات فتدخل فى أى خور فيتعذر عليه مطاردتها. وقد تمكن بعضهم من اصطياد غزالة بالليل بمجرد أن التقت بنور السيارة المبهر فأصاب العشى عينيها ووقفت ساهمة لا ترى ما حولها، فأمسكوا بها، ورباها أحدهم فى بيته فأنست للماعز والجديان.. وصادقها الأولاد والأطفال.

وأما صيد البحر فهو السمك والكابوريا، وكذلك «الاستكوزا» التى يعتقدون أنها تكسب من يأكلها من الرجال قوة جنسية خارقة، ولهم فى صيد القرش دراية كبيرة. كذلك منهم من يجمع قواقع بديعة الألوان من ساحل البحر الأحمر ويجهزها لتكون عقداً أو أسورة أو خواتم لزوجه، أو «أباجورة» أو «ميدالية»، يقدمها لها.. عندما يعود.

ويتكلم أحدهم عن «القرش» الذى قام بتحنيطه ويفوق طوله.. إرتفاع الإنسان، وقصد فى تحنيطه أن تكون أسنانه بارزة كالخناجر. ومنهم من برع فى تحنيط الثعالب.. يعطيها حقنة فتخر مغشياً عليها بدلا من ذبحها أو خنقها، ويضع بدلاً من العينين بلْيتان مطليتان «باللاكيه» الأسود البراق، ويكون الثعلب فى شكله النهائى مكشراً عن أنيابه فى وضع الهجوم. ومنهم من تخصص فى تحنيط رأس الغزال، فإن اصطاد غزالة، يفصل رأسها ويفرغه من كل ما به من لحم

ويتركه جلداً على عظم ، ويعلقه على حبل الخيمة عدة أيام فى الشمس فيجف تماماً ويصبح نقيًّا من كل رائحة . وأما جلد الغزال فإنه يدبغ ويقدم هدية لأى ضيف قادمٍ من القاهرة لكى يصنع منه حقيبة لزوجه أو حزاماً أو حذاء لها . وقد تمكن أحدهم من اصطياد « الطريشة » أى الحية ذات القرنين بأن ألقى إليها خيطاً من الكتان بآخره قطعة صغيرة من الصوف فأطبقت على الصوف بأنيابها وجذبها بشدة فسقطت الأنياب وأصبحت « الطريشة » بعد ذلك لاضرر منها ، وحنطها بطريقة بدائية بأن أفرغ جوفها وحشاه ، بالملح والقطن . وهى صالحة على كل حال لإثارة الذعر بين زملائه حينما يضعها لأحدهم فى الفراش . وعثر فى جوفها على اثنى عشرة بيضة كانت على وشك الفقس ، وشكل البيضة مستطيل وطولها مثل عقلة الأصبع أو يزيد . وبذلك فقد نفعت هوايته فى القضاء على ثلاث عشرة أفعى مرة واحدة .

وأما هواية « عبد الرحمن الذهبى » فهى تربية الكلاب . .

وقد عرفنا من قبل مقدار اعتزاز « الذهبى » بكلابه حتى إنه يقدم لها الماء النقى ويفضلها أحياناً على نفسه . وعلى مدى الأعوام أصبح له شعب من الكلاب تنتشر فى السهول والأودية تحفظ له الود وتدين له بالولاء .

كل الكلاب تعرفه.. وهو لا يعرفها إن كبرت.. ورحلت عنه أو رحل عنها .

وقد يمر أحد الرعاة على المعسكر ومعه قافلته الصغيرة فيهرع كلب من القافلة متجهاً إلى المعسكر ، فيعرف الناس أنه قد تخرج ذات يوم من عند عبد الرحمن الذهبى ، وأنه يترك صاحبه الحالى ليعبر عن ولائه لصاحبه القديم . . فيحس الذهبى بالزهو والسرور . . وبشعور طيب أنه يوجد ما يحفظ له الود فى تلك الصحراء . . التى يعيش فيها محروماً من كل ود . . ومن كل حنان .

وتصل السعادة بالذهبى إلى ذروتها ، حينما يكون فى إحدى رحلات

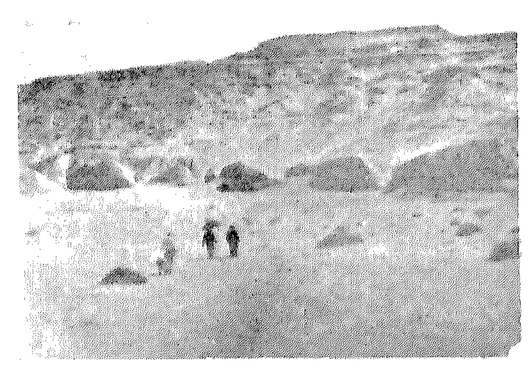
الاستكشاف ويمر بالقرب من تجمع سكانى للعبابدة أو خباء . . فتخرج إليه إناث من الكلاب تبحث عنه بلهفة . . لترحب به . . وخلفها جراؤها تهز ذيولها مقلدة لأمهاتها ، وقد يكون ترحيب الجراء . . ليس مجرد تقليد ، فربما شعرت – بغريزتها الصائبة – أن الرجل صاحب فضل وتاريخ على الأمهات . وينظر الذهبى إلى الجراء وأمهاتها بعين دامعة وشعور فياض بحب « الأسرة » . . ولو كانت أسرة من الكلاب .

* * *

وعندما يأتى دور الكلام عن الفنون ، نجد « فن اقتفاء الأثر » أكثرها أهمية فى تلك المنطقة من الصحراء . فهو لا يندرج تحت تلك الفنون التى تهدف إلى خدمة ذاتها ، بل إنه فن يخدم المجتمع الصحراوى أجل الخدمات فكم من إنسان ضلّ طريقه فى الجبال ، كان الفضل فى إنقاذه لله . . وكانت الوسيلة هى فن اقتفاء الأثر . كذلك له فى الحياة العادية استعمال يومىّ ، وعلى وجه الخصوص فى تعقب العير الشاردة . . والنعاج الضالة .

كما يساعد هذا الفن على معرفة الأخبار فى مجتمع العبابدة ، وعلى سبيل المثال ، إذا مر أحد الرعاة على مكان أسرة من أسر العبابدة ولم يجدها فى مكانها الذى كان يتوقعه . . يستطيع بجهد بسيط أن يعرف أى اتجاه سلكوا ، وبذلك يمكنه أن يستنتج مكان إقامتهم الجديد . . ويفيد هذا الفن أيضاً فى اكتشاف الجرائم وتعقب المهربين وغيرهم من المجرمين الهاربين فى الصحراء .

ولكل فن قواعد يقوم عليها . والقاعدة الأساسية لفن اقتفاء الأثر هى أن « القاطع أحدث من المقطوع » أى أنك إذا وجدت أثراً لسيارة ، أو لقدم آدمية مثلاً تقطع أثراً آخر ، فمعنى هذا أن صاحب الأثر القاطع قد وطئ المكان بعد صاحب الأثر المقطوع ، وأنه مرّ من هذا المكان فى زمن لاحق . ويمكنك على



ويوم أن ضللتم الطريق . لو صعدتم هذا الجبل . . ونظرتم نحو
الشمال الشرق ، لوجدتم خباءً لأحد العبابدة على مرمى البصر



والطريشة أي الحية ذات القرنين . . هي عدوهم اللدود



أساس هذه القاعدة أن تقرأ قصصاً كاملة على أرض الصحراء .

ومثال ذلك . . . يوم أن ضل بعض الرجال . . حديثى العهد بالصحراء طريقهم واقتفى زملاؤهم أثرهم ، وعثروا عليهم ، وتعجب التائهون يومها حينما لاحظوا أن زملاءهم يعرفون كل التفصيلات التى حدثت لهم منذ أن انحرفوا عن الطريق ، وقالوا لهم إنكم انحرفتم فى مكان كذا ، وجلستم للراحة عند جبل كذا ، ولو صعدتم الجبل الغربى ونظرتم نحو الشمال الشرقى لوجدتم خباء أحد العبابدة على مرمى البصر ، ولكنكم واصلتم سيركم وكان يقودكم إلى هذا الاتجاه فلان وأنتم تمشون خلفه ، وجلستم للتيمم ثم أقمتم صلاة المغرب عند تل أسود صغير ، وجلس فلان بعد الصلاة إلى جوار التل وأقسم أنه لن يبرح مكانه إلا إذا وصلته نجدة ، لكنه خشى الوحدة والخلاء فغير رأيه وجرى ليلحق بكم . وقد اشعلتم النيران فى مكان كذا ، وبعد مسيرة ساعتين من هذا المكان حدث خلاف بينكم على الاتجاه الذى يجب عليكم أن تسلكوا ، وكاد كل منكم أن يمشى فى طريق ، وتصالحتم بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولكن فلاناً انشق عليكم وترككم وصعد الجبل عله يرى قبساً من النور يهديه إلى مكان أى إنسان .

وباب الاجتهاد مفتوح فى هذا الفن . فمن الممكن تمييز أثر المرأة عن الرجل وأن هذه مشية حامل ، ومعرفة أثر البكر والثيب ، وكذلك من الممكن تقدير الوزن والطول وما إذا كان الرجل أعمى أو مُبصراً ، أو أعور الشمال أو اليمين ، وهل هذه مشية عبادى أو مشية غريب ، وهل هو كهل أو شاب ، مستريح أو منهك ، متردد أو واثق من طريقه ، خائف أو مطمئن ، وغير ذلك من الاجتهادات التى قد تخيب مرة وتصيب أخرى .

* * *

وحينما يصل الكلام إلى الطب ، يعرض كل منهم تجاربه . . ونتائج أبحاثه ! ،

أسماء الوصفات التي ورثها عن الآباء [illegible] على مدى العصور .
يتكلمون عن أنواع النباتات الصحراوية مثل الشيح ، و[illegible] ، وحلف البر ،
والحنظل ، وأهمية كل منها في علاج الأمراض . .

ويقول أحد المثقفين :

- لا تستهينوا بهذه الوصفات فهي خلاصة تجارب وخبرات . أليس العلم عبارة عن مشاهدات . . تتأسس عليها النظريات ؟ .

ومن قال اسأل المجرب قبل أن تسأل الحكيم . . لاشك أنه حكيم . وما هو أصل الأدوية في الصيدليات ؟ . . أليست تلك الأعشاب البرية والنباتات ؟

كذلك يصفون للقادمين الجدد طريقة علاج مَنْ تلدغه العقرب أو الثعبان . وخير إسعاف للمصاب أن يحقن بالمصل ، وغالباً ما يعيش . . إلا إذا كان سيئ الحظ وجاءت اللدغة في أحد شرايينه . ويحتفظ كل من يعمل في الصحراء بشفرة في جيبه فإن لدغته العقرب فعليه أن يشرط موضع الإصابة ، ويمتص الدماء المسمومة على قدر ما يستطيع ، شرط ألا يكون في فمه أي جروح ، أو يمتصها له زميله إن كان في مكان لا يصل إليه فمه ، ويربط العضو المصاب بإحكام لإعاقة السم عن الوصول إلى القلب . وإن لُدغ أحدهم وهو في مأمورية إلى المعسكر الرئيسي للبعثة فانه يكون أكثر حظاً مما لو لُدغ في أحد المعسكرات التابعة ، ففي المعسكر الرئيسي يضمن أن المصل من ثالثة ، لأنه محفوظ في الثلاجة ، وسوف يضعون له بعض الثلج على الموضع المصاب فيساعد على تسكين السم في مكانه .

وأما « الطريشه » أى الحية ذات القرنين . . فهي عدوهم اللدود . . تدفن نفسها في الرمل لا يظهر منها غير قرونها ، وإن شعرت بعدو فإنها تقفز لتلدغه وتغرز في جسمه أنيابها ، ولو حدث هذا فإنهم يطلبون من الرجل أن يقول وصيته وما له

عند الناس . . وما عليه من ديون حتى يبلغوا أهله بما قد يجهلون عن أحواله ، ولكن إرادة الله فوق كل القوانين . .

وإن لم يكن عمره قد انتهى فإنه يعيش حتى لو لدغته الطريشة .

وإليكم مثلا عبد العاطى عباس . . ألم تلدغه الطريشة ذات يوم ؟ وها هو ذا يجلس الآن بينكم ؟ .

ويترك عبد العاطى وابور الجاز الذى يجهز عليه الشاى ويلتفت إليهم قائلا :

— حدث هذا حينما دخلت خيمتى فى إحدى الأمسيات وكنت جائعاً ، فجذبت « قفة » الخبز من تحت السرير ومددت يدى بداخلها لأخرج منها رغيفاً فأحسست بلدغة بسيطة ونظرت فإذا طريشة ملعونة لا يزيد طولها على شبرين عالقة بها ، فصرخت وألقيت بها على الأرض ، ووجدت مكان الجرح ينزف بشدة وأردت أن أوقفه فنصحنى بعض الكبار أن أتركه ينزف حتى ولو صفى دمى كله . وقالوا لا تكتم الدماء يا بنى فإنها تطرد السم خارج جسمك ، واحمد ربك يا عبد العاطى لأن أنيابها لم تنخلع فى لحمك ، ونقلت إلى المستشفى وبقى جسمى متضخماً كالفيل لمدة شهر وتم الشفاء بحمد الله .

ويعلق أحد الحاضرين : إنه رجل محظوظ ، إذا قورنت قصته بذلك الرجل الذى جاء مع إحدى البعثات منذ عدة سنوات ، وحط رجال البعثة رحالهم فى أحد الأودية . . وأرادوا أن ينصبوا خيامهم هناك ، وبينما هم يطهرون المكان الجديد من شجيرات الشوك لدغت الحية اللعينة ذلك الرجل ووجد أن أنيابها فى لحم أصبعه ، وكان إيمان الرجل عميقاً وعزيمته من الحديد ، فأخرج من جيبه مطواة صدئة وصاح قائلاً : الله أكبر . . وقطع بها أصبعه ووضعه فى جيبه ، وأدركه زملاؤه ، ومن كرم الله كانت معهم سيارة فسافروا به إلى مستشفى القصير لإسعافه . . وكتب له الشفاء .

ويقول أحدهم :

– اسمعوا يا رجال . .لاعلاج لمن تلدغه الحية ذات القرنين إلا الحمام الزغلول ، فإذا لدغت أحداً منكم فعليكم بعدد موفور منه وافتحوا بطن كل واحدة بدون أن تذبحوها ، وألصقوا بطنها المفتوح على الموضع المصاب ، وسوف تجدون أن لون دم الحمام الفاتح تحول إلى لون أسود ، فألقوا بالحمامة . . وجيئوا بواحدة غيرها وهكذا حتّى تصلوا إلى الحمامة التى لا يتغير لون دمها .

ويقول أحد المتعلمين :

– والله إن منهج العلم الحديث لا يرفض التجربة وعليه أن يتقصى ما وراء كل مشاهدة من علل ، وهذه ظاهرة تستحق البحث والدراسة ، ولو كان صحيحاً أن لون دم الحمام يتحول إلى أسود فمعنى هذا أنه حدث تفاعل بيوكيمائى بينه وبين السم ، ولذلك فإن تفتت التركيب الكيمائى المعقد للسم ، أمر ليس ببعيد .

فيرد عليه أحد العبابدة ساخراً :

– ومن أين لنا هنا بالحمام الزغلول يا أستاذ ؟ . . هذا مطلب عسير المنال ، إنّ الكيّ بالنار أنجح علاج بشرط أن يأتى الكيّ بعد بتر العضو المصاب أو قطع جزء من لحمه ، وهذا العلاج ناجح سواء أكان المصاب رجلا أم عنزاً أم جملا أم حماراً وقال : أرنى يدك يا عبيد ، لقد قطع جزءاً من لحم يده بشفرة كانت فى جيبه حينما لدغته الحية اللعينة ، وشوى مكان الجزء بشظية من النار ، وحمداً لله فقد كتبت له النجاة .

وعلى كل حال فإن الوقاية خير من العلاج ، وأحرى بكم أن تعرفوا طباع تلك الزواحف والحشرات وأخلاقها . . فتجنبكم المعرفة كثيراً من شرّها . لا تحركوا الجلاميد الموجودة فى الوادى أو على جوانب التلال إلا بحذر ، ولا تجلسوا على الأرض بجوار أوانٍ أو « باستيلات » بها ماء ، وإياكم والجلوس بجوار براميل الوقود

أو على المسكوب منه فالطريشة تحب رائحته ، وإذا تبول جمل أو حمار بجوار الخيمة عليكم بإزالة آثاره فوراً فإن رائحته جذّابة للثعابين . ولا تقربوا خزان المياه الثابت فى مكانه إلا بكل انتباه ، وإن ذهب أحدكم إلى الغائط فلا يكون فى الظلام . . وعليه أن يفتش « المستراح » جيداً بعصا طويلة وهو على بعد قبل أن يجلس فوقه ، ولا تستعملوا الناموسيات فى الصيف مهما تكاثف عليكم الذباب . . . فهو أرحم على كل حال من العقارب ، إن العقرب تتسلق الناموسية وتلقى بنفسها من علٍ من فوق النائم ، ألم تسمعوا بالرجل الذى كان ينام فى سريره تحت الناموسية شبه عار فى الصيف فلدغته العقرب فى مكان حساس من جسمه فمات على الفور ؟ . وعليكم بتفتيش الفراش جيداً قبل النوم ، وإياكم أن تلبسوا أى ملابس قبل « تنفيضها » . ولا تطردوا الخنافس من خيامكم فهى عدو العقارب . ومن أراد منكم غاية الحذر فليضع فى خيمته نبات الشيح فإن تلك الحشرات لا تطيق رائحته . . . أو يفرش على أرض الخيمة جلد ماعز فهى تنفر منه . وإذا لُدغ أحدكم فى الظلام ولم يعرف أى نوع من الحشرات لدغه . فليطمئن إذا شعر بالألم . . إنه « العقرب الشمسى » . . شديد الإيلام ولكنه غير سام .

ولا داعى للاعتداء على الثعبان بدون سبب . . إذا تمكن أحدكم منه ، فإن أليفه لن يترك الثأر .

وإن كنتم فى الأودية . . فاحذروا الثعابين الراقدة محتمية بالظلال ، فلا أمان لكم من شرها إلا وأنتم فوق قمم الجبال . ومع ذلك فلا تطمئنوا لتلك القمم إن كانت مكونة من صخور الجرانيت ، فكثيراً ما يتسلقها الثعبان . . عن طريق « الخيران » . . بحثاً عن الماء الباردِ الذى يتجمع عادة فى الجيوب والحفر النقر بعد هطول الأمطار .

ولا تجلسوا تحت الأشجار فى الأودية إلا بعد أن تتأكدوا من عدم وجود

الثعبان فوق الأغصان . وهنا ينظر البعض إلى عبد الكريم فيبتسم قائلا :

– يغفر الله لى ، فقد أجبرنى ثعبان لئيم على الخروج من الصلاة . حدث ذلك عندما تيممت وذهبت لأصلى العصر فى ظلال الشجرة البحرية . وما إن ركعت الركعة الأولى حتى فوجئت بثعبان يسقط على رأسى من فوق الشجرة وشعرت بجسمه البارد يلتف حول عنقى . . ولا أعرف حتى الآن كيف تصرفت فى لحظة الذعر هذه للتخلص منه . . فقد وجدت نفسى بعيداً عن الشجرة بعد أن قفزت قفزة هائلة . . وعجباً أننى وجدت الثعبان راقداً لا يتحرك ، ولم يكن ميتاً بل مغشيًّا عليه . . وتبين لى أنه ابتلع عصفوراً . . كان قد وقف على رأسه المنتصب المتأهّب للصيد . . ظن أنه أحد الأغصان . . فبلعه الثعبان ، واندفعت دماؤه كلها لهضم العصفور فارتخت عضلاته وخر مغشياً عليه كمن ينام فاقد الوعى بعد أكلة دسمة .

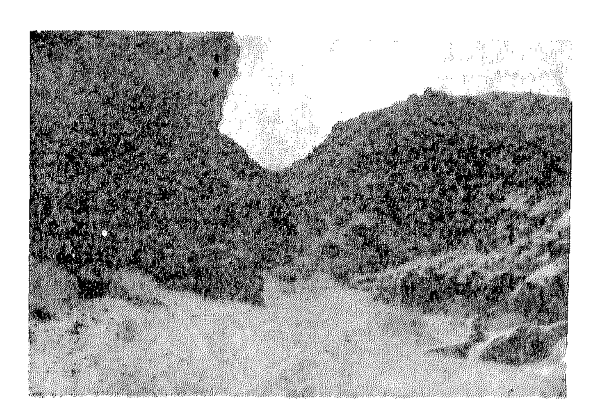
وإذا كانت الوقاية خيراً من العلاج ، فإن « العهد » خير من الوقاية . . وخير من العلاج . .

والعهد يأخذه الإنسان على العقرب أو الثعبان ، بألا يقتله الإنسان إن تمكن منه مقابل ألاّ يغدر به الثعبان . وعجباً للإنسان ، وحبه للخير والسلام ، إلى الدرجة التى يقيم فيها مع الثعبان عهداً ، بدون موافقة الثعبان . وكثير من رجال الصالون فَضّلوا اللجوء إلى العهد على الاحتماء بالعلم حتى بعض المتعلمين منهم . ربما لقلة ثقتهم فيا وصل إليه الإنسان من علم ، أو لضياع ثقتهم هذه أمام خشية الحية وهيبة الثعبان .

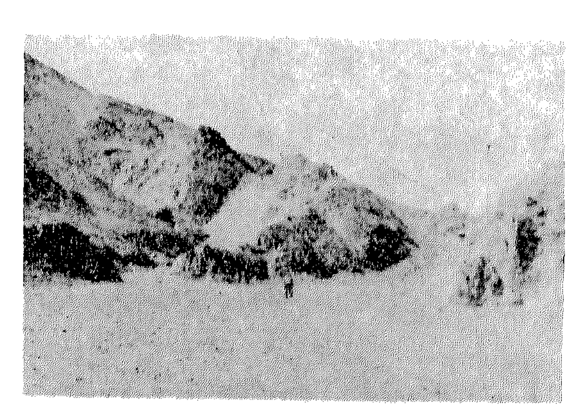
* * *

وحينما يصل بهم الكلام إلى « العلم » يسأل أحدهم :

– هل عجز الإنسان مع ما وصل إليه من علم أن يجد مَصْلاً أو ترياقاً لسم « الطريشة » ؟ ، وماذا يفعل الباحثون والعلماء المصريون إذن ؟



وهو يعرف درباً بين الجبال . . ، وسوف يغنيه هذا الدرب عن
استعمال الطريق الملتوى الذى تمر به السيارات خلال المنعطفات



عند التقاء وادي زيدون بوادي أبو جرادى . . توجد
جبال من الشيست العتيق ، وهو أقدم صخور المنطقة عمراً



فيرد أحدهم قائلا :

– هدفهم الحصول على الماجستير والدكتوراه .

– بدون أن تخدم أبحاثهم هذه . . المجتمع الذى يعيشون فيه ؟

– قرأت اليوم فى مجلة روزاليوسف أن أحدهم يعد بحثاً عن الغدة الدرقية عند القرموط ! .

– لقد وصل الأمر بهؤلاء الباحثين أن أصبحت أبحاثهم مضيعة للجهد والوقت . وقد سخر الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه فى إحدى خطبه من باحث قضى حياته يدرس معدة الصرصور ! .

– الرأى عندى أن دراسة غدد القرموط أو التوصل إلى معرفة شئ جديد عن معدة الصرصور أمر له فائدته العلمية . وربما يترتب عليه بعد ذلك فوائد اقتصادية أو صحية ، ولكن لا شك أن الباحثين بصفة عامة يسلكون الطريق السهلة ، لأن من أراد منهم أن يدرس التركيب الكيمائى المعقد لسم « الطريشة » هذه ، فإنه يتأخر فى الحصول على درجته وتتأخر ترقيته ، ويضيع وقته فى اصطياد « الطرايش » . . بما فى ذلك من مشقة وخطورة ، وهو بحث على كل حال غير مضمون النتيجة .

فيرد أحدهم قائلا :

– لا تظنوا أن دراسة غدة القرموط أو معدة الصرصور . . لا تهدف إلى خدمة المجتمع . صحيح أنها لا تخدم المجتمع الصحراوى فليس عندنا صراصير أو قراميط ، إن أمثال تلك الأبحاث يا رجال . . تخدم مجتمعهم هم . . أما نحن فهل يدرى بنا منهم أحد ؟ !

ومن أحاديث العلم فى الندوة ، أخبار الاكتشافات . . والثروات المعدنية وأماكن تواجدها فى تلك المنطقة من الصحراء . ومنها مثلا أن الجيولوجيين بمصلحة الأبحاث الجيولوجية قد عثروا على خام الحديد الأسود فى وادى الكريم ،

وأما حماضات فإنهم يستخرجون منها الفوسفات . « والطلق » والحرير الصخرى موجودان فى أماكن شتى من تلك البقاع ، وأم سميوكى بها النحاس ، وأم غيج يستخرجون منها الزنك والرصاص ، وفى « أبو غلقة » يوجد معدن الألمنيت الذى يستخرجون منه عنصر التيتانيوم ، والفواخير يوجد بها الذهب ، وأما وادى الجمال فإن فيه الزمرد . ولكن أجدادنا قدماء المصريين — غفر الله لهم — قد أجهزوا على المعادن الثمينة كلها ولم يتركوا لنا إلا « الغث » .

وأكثر المعادن التى يجهلونها هو هذا المعدن الذى تبحث عنه البعثة التى يعملون فيها و يطلقون عليه « اليورانيوم » ، وترجع صعوبة البحث عنه أنه ليس له لون ثابت بل له مئات الأصناف والألوان ، ويوجد فى أنواع مختلفة وكثيرة من الصخور .

ويقول رجل منهم :

— مرت الأعوام ونحن نتنقل بين الجبال ، ولم نصل إلى نتيجة ولا نرى أى إنتاج ، ماذا تستفيد الدولة من وجودنا هنا متحملين هذه المشاق ؟

ويرد عليه رجل آخر قائلا :

— إن الدولة لا تتقدم بيسر أو بسهولة ، إن هذه المهنة يا رجال . . تحتاج إلى عزيمة صادقة . لقد انقضت عدة أعوام على بعض الدول تبحث عن اليورانيوم ، وما زالت تواصل التنقيب . . بدون ملل أو قنوط ما دامت تسلك الطريق العلمى السليم .

— وأين الإنتاج ؟ !

— هناك نوعان من الإنتاج : الإنتاج المنظور والإنتاج غير المنظور . ويتساءل البعض عن الفرق بينهما فيُجيب المتحدث المتنّور : الإنتاج المنظور تجده عادة قصير الأجل ومن أمثلته : طحن الغلال ، ودبغ الجلود وصناعة الملابس والعلب المحفوظة ، وأمثال تلك المشروعات يكون الربح والخسارة والإنتاج والمصروفات فيها

واضحة . أما إنتاجنا نحن فهو عبارة عن ورقة . . « خريطة » .

– وكيف نستطيع نقيم هذا النوع من الإنتاج ؟

– بحساب التكاليف ، والمقارنة بالسعر العالمي لإنتاج مثل هذه الخريطة .

– وعدم العثور على شيء . . في حد ذاته ، يعتبر نتيجة ، فهو يفيد على الأقل في تضييق نطاق البحث في المراحل القادمة .

ويتجه حديثهم عن العلم عادة بالكلام عن الجنس ، شأنهم في ذلك شأن معظم الموضوعات التي يطرقونها في الصالون . تجدهم يتكلمون هنا عن الجنس بطريقة صارخة بحجة أنه كلام علمي ، ويتكلمون عن تفصيلات كانوا يستحون من ذكرها عندما تناولوا نفس الموضوع من قبل من خلال الدين . يسرد بعضهم تجاربه الشخصية للأصدقاء ، حتى من هو معروف بينهم بتقاليده المتحفظة . ويدرسون تجاربهم في الليلة الأولى للزفاف ، ثم ينصحون من هو على أهبة الاستعداد له . . ماذا يفعل بالتفصيل . ونجد بعض المثقفين يترجم لهم ما قرأه في الكتب الأجنبية عن « العلاقة الجنسية » ويستمعون بشغف إلى كلامه عن الأماكن الحساسة المثيرة في جسم المرأة . ويزعمون أن هذه الأحاديث مباحة من الدين ومن العلم على حد سواء . . طالما أن المقصد هو التعريف بفن الجماع في الحلال .

* * *

وتحتل أخبار الحيوانات وتصرفاتها جزءاً هاماً من أحاديث الصالون . يتكلمون عنها سواء بالمدح أو القدح ، وكأن لها شخصية محددة تقارب شخصية الإنسان .

ومن أهم أخبار الحيوانات ، أخبار الجمل . . وقصص الخلافات بين الجمال وأصحابها من العبابدة وكيف أن جمل محمد العبادي صبر على صاحبه أياماً طويلة في الصحراء منذ أن خرجا من أقصى الجنوب عند ضريح الشيخ الشاذلي إلى أن وصلا إلى بئر العطشان ، واتخذ الجمل اتجاهه نحو البئر فهو يعرفها ، لكن صاحبه

أراد بالضرب أن يجبره على تغيير اتجاهه. فاعتبر الجمل هذا الفعل إهانة لكرامته وعدم تقدير لجهوده، فنظر حوله فلم يجد أحداً في الصحراء الصامتة فقتله وأخذ يجرى هائماً في الأودية، وكأنه يعرف أن التعامل بينه وبين بنى الإنسان قد انقطع إلى الأبد، وربما كان يعرف أيضاً من كثرة عيشه في الصحراء وبحكم خبرته في تلك البقاع أن العبابدة جميعهم أقرباء، وأنهم لن يسكتوا على قتل قريبهم، فاختار العزلة ومات حزيناً بين الجبال، يشعر بوطأة الجرم الذى ارتكبه في حق صاحبه بعد عشرة طويلة في الصحراء، وأنه نسى كل الذكريات في ساعة غضب.

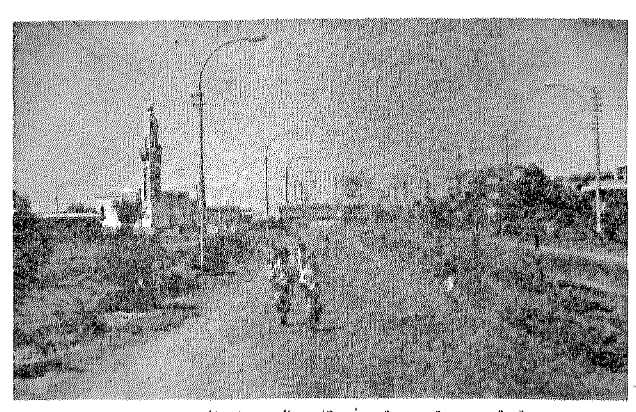
ويترحم البعض على العبادى القتيل، على حين لا يعفيه البعض الآخر من المسئولية، فقد أخطأ في طريقة تعامله مع الجمل. أليس الجمل حيواناً راقياً يفهم تماماً كما يفهم الإنسان؟ ولو عرفتم أيها السادة طباعه وأخلاقه، ورقته في معاملته لأنثاه لحكمتم بأنه ما كان ينبغى للمرحوم أن يعامله تلك المعاملة القاسية. وينصت الجميع في اشتياق.. فقد عاد الموضوع إلى الجنس مرة أخرى، وهو أكثر الأحاديث سحراً لديهم في تلك البقاع حتى لو كان الحديث عن ناقة وجمل

ويحكى سلمان قصة أبي الحصين الذى عشق القطة..

ويستنكر بعض الحاضرين هذا العنوان.. أمن المعقول أن يعشق الثعلب قطة؟! فيرد البعض أن الصحراء لا تقسو فقط على بنى الإنسان.. بل أيضاً يشعر فيها الحيوان بالحرمان، فتحل الصداقة والحب محل العدواة والبغضاء..

يقول سلمان:

– كان ذلك في يوم من الأيام ونحن نحرس معدات الحفر والمناجم في أحد الأودية.. بعد أن غادرها الناس الذين كانوا يعيشون في ذلك المكان، وانتقلوا منه إلى مكان آخر جديد، وكانت عندنا قطة صغيرة، وصلت إلى سن البلوغ والنضج ولم تجد أى قط يعيش معها وتقضى حياتها معه سعيدة وطبيعية، وكنت



قرية منجمية . . تقع فى قلب الصحراء المصرية ، هى
ثمرة بحث طويل أسفر عن اكتشاف المنجم



منظر عام فى وادى أبو جرادى ، حيث اكتشف أول مظهر لمعادن اليورانيوم
فى صخر ابلرانيت لأول مرة فى صحارى مصر



لاحظ أنها من كثرة شوقها إلى الذكر تأتى بأفعال فاضحة وكأنها امرأة لعوب ، وذات مرة التقت بأبى الحصين (يقصد الثعلب كما يطلقون عليه فى بلاد العبابدة) وأظن أنه كان يعانى نفس الحرمان ، وبدلا من أن يتبادلا العراك ، نمت بينهما الصداقة . . ووصلت إلى درجة الحب ، وأنجبت القطة صغاراً . . من القطط ولكن (بوزها) مدبب وذيلها كث الشعر مثل أبيها أبى الحصين .

وتجدهم يصفون الطيور المهاجرة التى تمر على تلك البقاع وألوانها الزاهية البديعة ، يستبد بها العطش فتهبط فى المعسكر ، ويتغلب التعب عندها على الخوف فتجدها ساكنة مستسلمة . . لا تحاول الحركة مهما اقترب منها أى شخص ، ويشفق عليها الناس ولا يحاولون اصطيادها أو ذبحها ، فهم يتطيرون من الاعتداء على أى طائر يلوذ بهم وهو منهك وعطشان ، ويخشون على أنفسهم من مصير مماثل فى مجاهل الصحراء .

كذلك يعقدون مقارنة بين شجاعة العصفور وجبن الغراب . وهذه ظاهرة متكررة تجدها فى كل ساعة من ساعات النهار أمام أى « باستيلة » من الماء تكون موجودة بجوار الخيمة أو المطبخ ، يتقدم العصفور عند شعوره بالعطش نحو حوض « الباستلة » الساقط من الغسيل حتى ولو كان يوجد أمامه رجل يغتسل . أما الغراب فإنه يقف بعيداً عن الماء يكاد أن يفتك به الظمأ ، فاتحاً فمه على مصراعيه . . يخرج منه لساناً أحمر كأنه يستغيث . ولكنه يظل واقفاً لا يجرؤ على الاقتراب . ويعطف الناس على العصفور الشجاع ويفسحون له الطريق للشرب ، ويزدرون الغراب لجبنه ويطردونه .

* * *

وبدون مناسبة يقول أحدهم :

— هل تعرفون أن أكثر أجزاء الجسم تعبيراً فى أى مخلوق هى العين ؟

وينظر إليه الناس بلا تعليق فيقول :

لى المعذرة أننى قطعت عليكم الكلام فإن هذا المنظر ما زال يؤرقنى وأشعر بالرعب بسببه كلما أويت إلى فراشى . كنت أتمشى وقت الأصيل بالقرب من المعسكر فرأيت إحدى الزواحف لها عينان واسعتان . تحدق بهما إلىّ ، وظننت أنها « الطريشة » أى الحية ذات القرنين . ولم أكن رأيت واحدة منها من قبل فهممت إلى حجر كبير وضربتها به فقسمتها شطرين ونزفت منها الدماء وتحرك رأسها مبتعدًا عنى ، ولكننى التقطت حجرًا آخر وانقضضت به على الرأس فنظر إلىّ نظرة أفظع من أن تصفها الكلمات وأصابنى الهلع فألقيت بالحجر وأخذت أجرى مذعورًا إلى أن بلغت خيمتى .

ويعلق أحدهم قائلا :

– إن الزواحف تغضب وتطلب الثأر تماماً مثل بنى الإنسان . حدث ذلك عندما كنت فى أحد الأودية ، ووجدت ثعباناً فضربته بحجر ثقيل سقط على رأسه فقتل لتوه ، وفوجئت بوليفه ينقض على فوليت الأدبار ، وعجبا أننى وجدت الثعبان يجرى فى الوادى بسرعة كبيرة رافعاً رأسه بغضب . . مصمماً على الفتك بى ، وجرت ساقى بسرعة لم أعهدها وكأنها تذفع بمحرك قوى من الفزع ، وكانت المسافة ثابتة بينى وبين الثعبان ، وهو من الإصرار والتوعد بشكل يؤكد أننى هالك لا محالة . ووصلت إلى السيارة وأدرت المحرك . . وتحركت والثعبان ينقض على بابها ، ونظرت إليه فرأيته يسقط فجأة فعدت بالسيارة ومشيت إلى جواره حذراً لكى أعرف ماذا حدث له ، فوجدت أنه « فرقع » من الغيظ .

ويضحك الناس فرحين بنهاية القصة ، ولكن رجلا من أهل الصعيد يقول وهو جامد الوجه كأنه حزين على مصير الثعبان .

قال الرجل :

– لا تشمتوا فى الثعبان ، فهو شهيد الكرامة . لقد اعتدى عليه عدو جائر وقتل وليفته أمام بصره بلا أى ذنب جناه ، فاستنفر عزته للثأر وكاد أن يحقق مراده ، وفى لحظة واحدة شعر بالضياع وبالفراغ ورأى عدوه ينطلق على مركبة جبارة من حديد مقهقهاً . . ساخراً من مأساته ، فمات كمداً وغيظاً .

وتعجب الرجال من منطق زميلهم ابن الصعيد . . أن يدافع عن ثعبان بهذه الطريقة وسخروا منه . فقال :

– لا تسخروا ولا تتعجبوا فقد يموت بعضكم كمداً لو اعتدى عليه جبار ولم يظفر به ، تماماً مثلما حدث للثعبان .

وبدأ الناس ينظرون إلى الرجل بنوع من الجدية . فاستطرد قائلا :

– صور الكاتب الكبير نجيب محفوظ هذا النوع من « الفراغ » فى إحدى قصصه القصيرة . . لو قرأها أحد منكم لشعر بالرثاء للمقهور الذى لم يظفر بعدوه حتى لو كان هذا المقهور ثعباناً .

* * *

وقال الرجال : قل لنا ما هى الصورة التى رسمها نجيب محفوظ .

قال : كان شاباً يافعاً ، عاش فى زمن الفتوات ، وأحب فتاة كانت كل أمله وحياته وكانت الفتاة تحبه وتعتبره مثلا أعلى وزينة الرجال . وفى ليلة الزّفاف رآها فتوة الحى تختال فى ثوبها الأبيض فأعجبته ، وقرر أن تكون له . فأمر العريس أن يطلق عروسه ، وذعر العريس للخطب ، فاعتدى عليه الفتوة وطرحه أرضاً وداس بحذائه رقبته طالباً منه أن يطلق عروسه ، أو يعصر عنقه تحت الحذاء .

وفى تلك الليلة ترك الشاب المسكين القاهرة وهاجر إلى الإسكندرية وكل أمله أن يصبح قويًّا وله رجال أقوياء مثل الفتوة . ونذر حياته للثأر وظل عشرين عاماً يكافح لتحقيق حلم واحد أصبح كل هدفه فى الحياة . . أن يعود إلى القاهرة على

رأس رجاله للانتقام ، ويطرح الفتوة على الأرض ويضع قدمه فوق رأسه على مشهد من أهل الحى كله كما فعل به من قبل ، ويأمره بأن يطلق زينب لتعود إلى حبيبها الأول . وأخيراً تحقق له أمله وسافر ومعه رجاله إلى الحى القديم الذى هاجر منه ذليلاً مهاناً . وذهب إلى بيت الفتوة فوجد الظالم قد مات ، فمشى إلى حبيبته فوجدها امرأة تختلف تماماً عن زينب الأولى . . أرملة سمينة لا تعرف الحب . . ولاتفقه للبطولة معنى ، وفترت أحداث الذكريات الأليمة عندها وأمست باهتة ، وأصبحت المرأة لا تبالى قليلاً أوكثيراً إلا بتربية الأولاد وتجارة البيض . فشعر بغيظ وفراغ أليم ربما فتك به بعد ذلك فى « الخلاء » مثلما فعل الغيظ بالثعبان .

وبعد أن سمع الناس قصة نجيب محفوظ ، أخذوا يقولون :

— إذن فإنّ حب الانتقام صفة مشتركة بين الإنسان والثعبان . .ترى هل هى فى أصلها صفة إنسانية موجودة عند الثعبان ؟ . . أو هى خصلة ثعبانية موجودة عند بنى الإنسان ؟ !

* * *

وكأى ندوة من الندوات لابد أن يعرج فيها الحديث على السياسة ، ويبدأ بالسؤال التقليدى المعروف :

— ما هى قوة إسرائيل بالمقارنة إلى قوتنا نحن المسلمين ؟

- إن مصر عندها أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ، يكفى أن جمال عبد الناصر لديه « القاهر » و « الظافر » ، وهى صواريخ « أرض — أرض » أيها الإخوان ، نستطيع أن نضرب بها « تل أبيب » ونحن هنا قاعدون .

ولايأبه العبابدة كثيراً لأمثال تلك الموضوعات ، أولا لأنه ليس لديهم أدنى شك فى أن مصر تستطيع أن تمحو إسرائيل من الوجود بلا أى عناء إن أرادت

ذلك ، ثانياً لأنهم لم يجربوا التعرض للغزو الأجنبي منذ أن هاجمهم رجال المعازة وتصدى لهم أبطال من العبابدة مثل الشيخ أبو جرادى رحمه الله . كما أنهم لم يذوقوا ويلات الحروب الحديثة فهم فى بلادهم منذ أجيال طويلة آمنين . ومع هذا فإنهم متحيزون بلا شك للبطل العظيم جمال عبد الناصر ، يبسطون مواقفه ضد الإنجليز واليهود ، وصموده إزاء طغيان الدول الكبرى ويحكونها فى ملاحم للبطولة تشبه ملاحم الأقدمين أمثال « سيف بن ذى يزن » وأبو زيد الهلالى وعنترة ابن شداد . ويقول أحد الرجال :

– مهما كانت إسرائيل ضعيفة فعلينا أن نحذر منها فهى على الأقل ذكية وخبيثة ، وقد ينتصر الخبيث الضعيف على القوى الصريح . .

هل لديكم تفسير لما سمعناه اليوم من إذاعة « تل أبيب » ؟ . لقد أذاعت أن مكثف القصير قد تعطل ، وأصيب البلد بأزمة فى الماء ، فلجأ المسئولون إلى الاحتياطى الموجود بالخزان ، ووقف أهل البلد صفًّا . . كلٌ معه صفيحة ليتسلم حصته ، وامتد الطابور من المكثف حتى وصل إلى دكان « محمود لواس » ! ! ، بالله عليكم كيف علمت إسرائيل بهذا الخبر البسيط وباسم صاحب الدكان ؟ !

وكان يجلس بين المنتدين رجل اشتهر بالصمت ، لم يشترك فى أى حديث أو حوار منذ بداية الندوة ، ولقد عرف عن الرجل بأنه لايشد إلى أى موضوع إلا إذا كان عن « السياسة » . وعندما وصل رفاقه إلى تلك النقطة خرج عن صمته ليسألهم جميعاً سؤالاً عجيباً :

– هل منكم أيها الأخوان من يعرف أننا قد أبرمنا عقداً . . مع إسرائيل نشترط فيه عليها أنها إن أرادت الهجوم على مصر ، فليس من حقها أن تقوم بهذا إلا من جهة واحدة محدودة هى قناة السويس ؟ !

واستنكر بعضهم طريقة السؤال وما فيه من تهكم ، ومنهم من قال إن الرجل

سكت دهراً ونطق كفراً . ولكنه استطرد بهدوء وثقة دون أن ينظر إلى وجوه الحانقين . قال . . كأنه يحادث نفسه :

– أجوب بلاد العبابدة من الشمال إلى الجنوب ومن ساحل البحر الأحمر شرقاً حتى الصعيد غرباً ، فلا أجد موقعاً عسكريًّا واحداً ، أو أى نقطة للمراقبة . هل رأى أحد منكم « البدل الصفراء » من قبل فى تلك البلاد . . اللهم إلا أفراداً نادرين يراقبون المهربين ؟ ! .

ورد عليه واحد من المثقفين :

– اعلم يارجل أن الصحراء الشرقية مانع استراتيجى طبيعى ، تحمى بجبالها وادى النيل بدلا من الجيش . وبلاد العبابدة بصفة خاصة ليست فى حاجة إلى حماية فهى بعيدة .

وأعجب الرجال جميعاً برد الرجل المثقف ، وأخذوا يتهكمون على الرجل الصامت ولكنه تساءل بصوت هادئ قوى ، سؤالا كأنه يتضمن بين نبراته إجابة فيها نذير .

– بلاد العبابدة هذه . . بعيدة عن ماذا يارجل ؟ ! اتق الله . . أليست متاخمة للصعيد ؟ ، وهل الصعيد قطر آخر غير تابع لمصر ؟ . وكيف تتصور إن إسرائيل لا تستطيع أن تضرب بلاد الصعيد عبر هذا الجزء من الصحراء بالوسائل الحديثة ؟ ، هل الأسلحة والمعدات الحربية العصرية أقل كفاءة من مركبات الأقدمين ؟

قالوا :

– بل إنها أكثر كفاءة ، يوجد لدى الجيوش الحديثة طائرات فى الجو ، ومدرعات ومصفحات على الأرض .

فقال الرجل :

– إن سيارات بعثتنا الجيولوجية تنتقل بين الجبال وتمسح السهول والأودية ، هذه صحراء صخرية وليست رملية ، وهى أسهل ما تكون على المركبات الحربية ، ولاتقف أرضها أبداً مانعاً استراتيجيًّا فى وجه الغُزاة .

– أفصح يارجل .

– اعلموا أننى واثق من أن الدفاع عن هذا البلد غير حكيم .

– جئنا بالدليل .

– ألم تسافروا من البحر الأحمر إلى وادى النيل فى تلك الطرق الجبلية الرئيسية التى تصل ساحل البحر بالصعيد ؟ من ينظر منكم إلى قمم الجبال العالية يجد على طول الطريق حجرات لا حصر لها فوق هذه الجبال . هل تعرفون الغرض من تشييد تلك الأبنية ؟

قال قائل منهم :

– أظنها شيدت فى الماضى كعلامات لهداية الحجاج ، حينما كان السفر إلى الحجاز عن طريق ميناء القصير بدلا من السويس .

فقال الرجل :

– كلا . . أيها الأصدقاء . إن أجدادكم الأقدمين كانوا بحق قادة عسكريين . لم يكن لديهم اتصال سلكى أو لاسلكى ، فأقاموا هذه الإنشاءات فوق الجبال لحماية وادى النيل من خطر الغزو الأجنبى . فهى نقط مراقبة موجودة فى مواقع مختارة بحيث تُتيح لمن يقف فى واحدة منها أن يرى « النقطة » الموجودة شرقها وتلك الموجودة غربها . وكان يتناوب على كل منها حرّاس ساهرون بالليل والنهار . فإن رأى أول المراقبين مراكب العدو فى أفق البحر الأحمر . . أشعل النيران أمام موقعه فيراها من يليه غرباً فيشعل شعلته وهكذا ، فيعرف قادة الجيوش الموجودة بين الجبال بقدوم الغزاة فيهبون لاستقبالهم قبل وصولهم إلى أرض مصر ، ويباغتون

العدو بدلا من أن يباغتهم . و يصل خبر الغزو الأجنبي إلى القيادة المركزية فى مدينة « قفط » فى دقائق قليلة . فتصدر الأوامر بلقاء العدو والتصدي له قبل أن يصل إلى الشواطئ المصرية فضلا عن وادي النيل . إن واجب الدولة أن تحمي كل أطرافها . وإنني أتعجب يارفاق . هل متانة الدفاع عن البلد تزداد مع تقدم الزمن أو تتخلف ؟ ! . لنا الله إن فسخت إسرائيل العقد الذى أبرمته معنا ، وقررت الهجوم من جهة أخرى غير قناة السويس .

* * *

حكاية . . من الصحراء

كانت وظيفة طلعت قبل حضوره إلى بلاد العبابدة سائق أتوبيس بمقر الهيئة التى تتبع لها البعثة الجيولوجية . ويبعد مقر الهيئة عن القاهرة نحمسين كيلومتراً ، وأما العمل اليومى الذى كان يقوم به طلعت فهو نقل الموظفين من القاهرة إلى الهيئة ، ويظل طول اليوم نائماً فى « الجراج » لأنه يسهر الليل على « تاكسى » يعمل لصالح إحدى الحانات بشارع الهرم . ولقد اشتهر طلعت بين العاملين وزملائه السائقين بأنه رجل فَظٌّ متغطرس . . غليظ القلب . . سليط اللسان . وهو قوى متين البنيان . . لا يتورع عن الاعتداء بالضرب على أى زميل له من السائقين . . إذا أبدى له النصح بخصوص احترام العاملين .

ذات يوم وهو يقود الأتوبيس من مقر الهيئة إلى القاهرة سمع أحد الموظفين يقول لزميل له إنه عاد بالأمس من « القصير » ، فقد كان فى مأمورية لتوصيل بعض

المهات إلى البعثة الجيولوجية التى تقوم بالبحث عن اليورانيوم . . فى بلاد العبابدة . واستمر الحديث بين الموظفين عن بلاد العبابدة هذه ، وطلعت يتثاءب وهو يقود السيارة لا يعير الكلام أى أهتام . وفجأة وصل الموظف فى حديثه إلى نقطة جعلت طلعت يفيق من سباته ، ويكاد أن يفقد معها صوابه ، كما جعلته يستغرق فى التفكير إلى الدرجة التى نسى معها أنه يقود الأتوبيس . . على طريق مزدحم خطير . قال الموظف إن هذه المنطقة بها منجم مهجور للذهب . . استخرج منه الأقدمون كميّات كبيرة على مدى العصور . وكان إلى وقت قريب ملكاً لإحدى الشركات الأجنبية ، فلما قامت الثورة وطردت الأجانب وأُمِّمَتِ المنجم . . حدث فى إدارته خلل وإهمال ، وتعطلت ماكيناته ، ونضبت موارد الذهب فيه بسبب توقف عملية الاستكشاف الجيولوجى حوله فتوقف عن الإنتاج . ويوجد بعض العبابدة هناك ممن كانوا يعملون فى المنجم يعرفون عروقاً فى الجبال المتاخمة له . . تحتوى على ذهب خالص ، لكنهم لا يريدون البوح بسرها .

وانتقل الحديث إلى مواضيع شتى ، لكن طلعت ظلّ ساهماً مُستغرقاً فى التفكير وفجأة نظر خلفه ، ولأول مرة شهد العاملون منظراً غريباً عليهم . . لقد شهدوا ابتسامة واضحة على شفتى طلعت . . وهو يوجه سؤاله بأدب إلى الموظف قائلا : من ذا الذى بيده الأمر إن أردت أن أنقل نفسى لأعمل فى البعثة الجيولوجية ؟ . وأجابه الموظف قائلاً : إنه رئيس قسم الجيولوجيا والخامات الذرية .

انتظر طلعت أمام مبنى قسم الجيولوجيا ، إلى أن رأى رئيس القسم ينزل السلم وحده ، فهرع إليه وحياه باحترام . . وأخذ عنه حقيبته . . وقال :

– سعادة الأستاذ الدكتور . . إن ضميرى يؤنبنى . . وأشعر بغيرة وطنية تحطم معنوياتى ونفسى .

وتعجب رئيس القسم وسأله : دلنى يابنى كيف أستطيع أن أساعدك .

قال طلعت :

– إننى أسمع كل يوم بأخبار زملائى السائقين الذين يناضلون فى الصحراء ، سواء فى بلاد العبابدة . . أو الجنود منهم على خط النار . وكل يوم أتساءل كيف يتعرض هؤلاء الرجال إلى مثل تلك الأخطار . . وأنا فى بيتى . . هانئ النفس . . مستريح البال . إن « الثورة » يا سعادة الدكتور لها علينا فضل كبير . . وأريد أن أخدم وطنى ، فهل توافق على أن تنقلنى إلى البعثة الجيولوجية الموجودة فى الصحراء ؟

ونظر إليه رئيس القسم ، فوجد عملاقاً قوى الجسم ، فقال فى نفسه : ما خُلِقَ هذا الرجل إلا للصحراء ، وهل يوجد من يتحمل أكثر منه مصاعب الجبال ؟

وقال :

– سعيد أنا بشعورك الوطنى ، وإننى أبشرك بموافقتى ، وبأنك ستحصل على إضافة شهرية مقدارها عشرة جنيهات اسمها « بدل الصحراء » .

وسخر طلعت فى نفسه . . كيف يظن أن طموحه يقف عند هذا القدر من المال . ألا يعرف الأستاذ الدكتور أن عشرة الجنيهات هذه . . يحصل عليها « كبقشيش » . . كل ليلة من رواد « البار » ؟ !

ومنذ اليوم الأول لوصول طلعت إلى معسكر البعثة ، وهو يحوم حول العبابدة الذين يشتغلون فى المعسكر كعمال ، يبذل كل ما فى استطاعته ليوطد علاقته بهم ، يزورهم كل ليلة فى خيامهم ومعه السكر والشاى . . للسمر وتجاذب أطراف الحديث . واستطاع أن يقدم لهم خدمات كثيرة بلا أى مقابل ، وساعده على ذلك طبيعة عمله كسائق ، فكان يشترى لهم من قنا والقصير كل ما يريدون ، ويحاسبهم بأمانة . وعندما يركب أحد منهم معه فى السيارة يعامله برفق وأدب لم يسبق له أن عامل به أحداً من العاملين بالهيئة عندما كان فى القاهرة ، ويصر على أن يركب

العبادى معه فى «كابينة» السيارة بدلا من الصندوق الخلفى . وبعد فترة طويلة من مجاهدة نفسه على المعاملة الحسنة . . وهى منهج من الكفاح لم يألفه . . ولا يتمشى مع طباعه الغليظة ، استطاع أن يكسب ثقتهم فعرف منهم مكان المنجم المهجور ، وعرف أيضاً أنه لا يوجد من بين الأحياء ممن كانوا يعملون فى هذا المنجم إلا الشيخ سعيد ، وهو شيخ طيب من العبابدة جاوز المائة من عمره يعيش على سفح جبل يبعد مسافة خمسين كيلومتراً عن المعسكر ومعه رهط من أولاده وحفدته وعائلاتهم .

وانتقل طلعت إلى المرحلة الثانية من خطته . وتهدف تلك المرحلة إلى توطيد علاقته بالشيخ سعيد ، وبدأ يعرض عليه الخدمات المعتادة التى يحتاج إلى أمثالها من يسكن منعزلا فى الصحراء . وقد لاحظ طلعت أن الشيخ – على الرغم من رقة حاله – كريم عفيف النفس ، يقضى معظم وقته فى الصلاة . وشعر طلعت بالضيق لما عرفه من قناعته وعدم احتياجه لأى طلبات من الريف ، لكنه لم ييأس ، وعرف أن أحسن هدية يمكن أن يقدمها للرجل هى ماء من وادى النيل ، فاشترى بضعة «جراكن» من البلاستيك كان كلما سافر إلى الصعيد يعبئها بالماء من إحدى الحنفيات العامة فى مدينة «قفط» ويحضرها خصيصاً للشيخ سعيد . وحتى هذه الهدية – على الرغم من احتياج الرجل لها – كان يتعفف عن قبولها قائلا إنه ربما يحتاج إليها رجال البعثة اكثر منه . . وهم بها أحق لأنها تنقل كل هذه المسافة بواسطة سيارتهم .

وذات يوم مرّ عليه طلعت بالسيارة وانتظره حتى انتهى من الصلاة فسلم عليه وقبل يده ودعاه الشيخ إلى تناول الغداء معه ، فقبل دعوته شاكراً ، وبعد الانتهاء من الطعام قال له طلعت إنه سيذهب إلى أحد الأودية القريبة من المنجم المهجور لكى يجمع بعض أوراق نبات «الحرجل» من هنالك ، لأن امرأته مريضة ولاشفاء

لها إلا باستعمال منقوع هذا النبات بصفة مستمرة . وهو يرجوه أن يحضر معه ليجمعا كمية منه . وركب معه الشيخ مرحباً .

وبعد فترة من السفر انحرف طلعت عن الطريق المعتاد وأخذ يجرى بالسيارة إلى أن دخل بها فى سرب طويل بين جرفين متجاورين ، وأوقف السيارة وطلب من الشيخ أن ينزل منها ثم قال له :

هل تظن ياشيخ سعيد أننى جئت إلى بلادكم هذه من أجل عشرة جنيهات شهرية فوق مرتبى ؟

فلم يفهم الشيخ مقصده وقال :

-- إن الحياة يابنى كفاح . . والاغتراب من أجل لقمة العيش شرف .

فقال طلعت :

— سوف أوجز لك القول وأعرفك بما أريد : إننى ما جئت إلى هنا إلا لكى تدلنى على عروق الذهب الخالص فى هذا المنجم المهجور ، ولك مما آخذه نصيب يعينك على حاجتك فأنت رجل فقير .

ودهش الشيخ سعيد عندما سمع شخصاً يصفه لأول مرة بأنه رجل فقير ، وقال : إننى غنى يابنى والحمد الله .

وتعجب طلعت فهو يعرف أن الشيخ جدّ فقير ، ولكن الرّجل أفحمه حينما قال له :

ما هو الغِنى يابنى ؟ . إنه عدم الحاجة ، وأنا لست محتاجاً إلّا لله سبحانه وتعالى . وماذا ينفعنى الذهب أو كثرة المال فى هذه الصحراء ؟ ! خير لى أن أقابل ربى عمّا قريب فقيراً من أن أقابله سارقاً وخائناً للأمانة .

فانقض عليه طلعت وأمسك برقبته قائلا بصوت بطئ وغليظ :

– والله لأقتلنك فى هذا السرب المهجور . . أيها اللئيم العجوز ، وأدفنك هنا

بين الجبال . . فلا يَعْرِفُ قبرك من هذا المكان إنسٌ ولاجانٌّ .

وأخذ الشيخ يرجوه العفو والرحمة ، وتخلص برفق من يديه . . وتركه طلعت على أمل أن يكون قد غير رأيه : . . وقال له الشيخ :

– إننى يابنى رجل مسالم ، وأنت فى عمر حفَدَتِى وسوف يغفر لك الله إن رحمت شيخوختى وضعفى و . . . .

وانقطع كلام الرجل فجأة وحدثت مفاجآت متتالية فى لحظة خاطفة . . كأنها البرق . فقد انقض الشيخ على الأرض بسرعة جنونية ، والتقط بين يديه كمية كبيرة من التراب وقفز قفزة هائلة وحَشَا بها عينى العملاق وأخذ يكيل له الضربات بصخرة من الجرانيت . . كانت ملقاة على الأرض . . فخر طلعت مغشياً عليه .

والشيخ سعيد لا يستطيع بالطبع قيادة السيارة ليعود بها إلى دياره ، ولكنه يعرف أنه إذا تسلق الجبل واستمر يمشى نحو الجنوب فسوف يصل إلى خيام إحدى عائلات العبابدة بعد مسيرة نصف يوم فقط . وعندما وصل إلى خيامهم استقل بعيراً من هناك واتجه مباشرة إلى رئيس الغرباء ، فوصل إلى المعسكر الذى يقيم فيه بعد ليلة كاملة ، وقص عليه القصة . فأرسل معه سيارة لكى يسعفوا طلعت ويرجعوا به . ولما وصلوا إلى المكان الذى ضربه الشيخ سعيد فيه ، لم يجدوا السيارة فاقتفوا آثارها وتبينوا أنها اتجهت إلى مكان المنجم المهجور ، ووصلوا إليه فوجدوا السيارة تقف عند فوهة المنجم . وأخذوا يصيحون . . لكنهم لم يسمعوا إلا صدى صوتهم .

ودخول أى منجم مهجور له طريقة خاصة يجب أن تتبع ، وكذلك هناك قواعد للأمان يجب أن تراعى وإلا تعرض الداخل فيه لخطر الموت .

ولم تكن معهم المعدات اللازمة لدخول المنجم لأنهم لم يتوقعوا أن يجازف طلعت بدخوله وحده . لكن الشيخ سعيد اعتمد على معرفته السابقة بحارات

المنجم ، فدخلها فى الظلام الحالك وأخذ يتحسس طريقه بعصاً طويلة تسبقه حتى لا يسقط فى وَجْرَةٍ (أى حفرة عمودية) قديمة مما كانوا يحفرونها لتتبع الخام . . إلى أن وصل إلى أول تلك الوجرات . . فأيقن أن طلعت سقط فيها وهو فى الظلام ، فربط الشيخ سعيد وسطه بحبل متين ، وربط الحبل فى صخرة عاتية ونزل الوجرة العمودية فى الظلام الدامس ، وفى نهايتها وجد جسماً آدمياً فأمسك به ، واستطاع بمعونه الرجال أن يخرجوه .

وقد كان طلعت مغشيًّا عليه فى حال بين الحياة والموت ، وكانت عظامه مهشمة من أثر السقوط ، ضعيف النبض يحتضر ، مختنقاً بغاز ثانى أوكسيد الكربون الذى يتواجد عادة فى المناجم المهجورة . . ويتراكم بصفة خاصة فى المستويات السفلى منها .

ورجع طلعت إلى القاهرة خائباً . . محمولا على « نقالة » . وهو الآن يعانى العجز وذل الفقر لأنه خسر فى هذا الحادث أعز ما يملك السائق . . فقد تهشمت قدماه .

* * *

قصر البنات

يظهر أن شهر العسل ليس بدعة ابتدعتها المدنية الحديثة ، بل هو ضرورة ، وإلا ما استطاع الإنسان الصحراوى البسيط ، البعيد عن هذه الفكرة أن يصل إليها ويتبناها .

يوجد مكان فى الصحراء المصرية ، يقع بالجزء الجنوبى منها . . اسمه قصر البنات . . يحج إليه الزوجان من البدو لقضاء فترة سعيدة بعد زواجهما بعيداً عن قيظ الصحراء ولهيب الجبال .

وقصر البنات ليس قصراً ، ولا يوجد به أى نوع من أنواع المدنية بمفهوم الرجل المتحضر ، لكنه بالنسبه للبدوى وبالنسبة للعروس الصغيرة التى لم تر خلال حياتها غير الجمل والماعز والجبال ، كل أنواع الترفيه المطلوبة فى شهر العسل .

فهو حائط طبيعى كبير من الحجر الرملىّ الصلب ، دائماً يوجد بجواره ظلال إما

من جهة الغرب أو الشرق ، وبجواره ينبوع ماء . . يتفجر من باطن الأرض .

وأعجب ما فى المكان موقعه ، فهو لا يبعد كثيراً عن أحد الطرق القليلة التى تشق الصحراء ، تمر عليه سيارة كل بضعة أيام ، فترى العروس لأول مرة فى حياتها التى لا تزيد فى العادة على ثلاثة عشر عاماً جسماً معدنيًّا كبيراً . . زاهىَ اللون — له بريق — مثبتاً على عجلات ومحملا بأكياس كثيرة من الدقيق وقدور من العسل والزيت وكل ما تشتهى الأنفس ، وربما يكون محمّلا أيضاً بآدميين ويجرى بسرعة رهيبة أضعاف سرعة الجمل .

مخلوق عجيب اسمه السيّارة طالما سمعت عنه العروس من بعض الرجال العظام الذين يسافرون إلى الريف (صعيد مصر) مرة فى كل عام .

وبانتهاء أيام العسل تكون العروس قد حققت كل ما هو مطلوب فى رحلة زوجية سعيدة بمفهوم أهل المدينة . فقد قضت أياماً جميلة فى جوٍّ رطْب ظليلٍ ، وشاهدت من مناظر المدنية مالم تشاهده زميلاتها وصديقاتها اللائى لم يتزوجن بعد . ويحمل العريس بيت الزوجية على الجمل . . فهو مجرد خباء بسيط من الخيش ويعود ومعه عروسه الصغيرة السعيدة . . لتحكى بعد ذلك مشاهداتها فى « قصر البنات » كعروس من بنات القاهرة قضت شهر العسل فى ربوع أوربا .

" " "

من قصص التمرّد والعصيان

من أشهر القصص التى تحكى فى ندوات السمر الليليّة فى الصحراء . . تلك التى تتكلم عن التمرد والعصيان .

وحينما تذكر الكلمتان تتجه الأنظار إلى مراد أفندى . . وكنيته « أبو مقشة » . ويشيح الرجل بوجهه حياء محاولا تغيير موضوع الحديث ، ولكنه يجد أن أحدهم سوف يحكى القصة ويشرح للناس لماذا أطلقوا عليه« أبو مقشة » فيفضل أن يعرض قصته بنفسه لأنه أولى من غيره بالسخرية من ذاته .

* * *

القصة الأولى :

يقول مراد أفندى :

كان ذلك منذ عامين حينما جئت لأول مرة إلى الصحراء . وقد كان عملى السابق فى القاهرة موظفاً متأنقاً بإدارة شئون العاملين . وأسند إلىّ وظيفة صرّاف

البعثة ، فكنت أسافر إلى قنا كل شهر تقريباً ، عندما أتسلّم « شيك » المرتبات ، وميعاد وصول « الشيك » غير ثابت ، ننتظر وصوله إلى أول الشهر حتى منتصفه . وأعود إلى وادى عسل فأجد الرجال ينتظرون وصولى باشتياق وتلهّف لأصرف لهم مرتباتهم لقضاء شئونهم وسداد ديونهم .

ذات يوم نادانى أحد العمال من العبابدة باسمى « مراد » ! . . هكذا بدون الألقاب ! ! . . ولم أكن أعرف وقتها أن هذه طبيعتهم وأنه ليس لديهم فيما بينهم ألقاب ، وظننت أنه لا يدرى بمنزلتى وذاتى . . أو درجتى بين الموظفين . وعزمت على أن أؤدبه وأجعله عبرة لأمثاله ليعرفوا منذ البداية من أنا . وعلى البدوى الساذج أن يعرف أن مراد أفندى قادر بقلمه ان يعز من يشاء ويذل من يشاء . وقررت أن استخدم ماتدربت عليه من فنون « البيروقراطية » التى تمرست عليها فى إدارة شئون العاملين ! . إن « البيروقراطية » قد أذلت فى مصر العباد . . أليست قادرة على أن تذل العبابدة ؟ ! .

ويتساءل رجل من الجالسين :

– وما هى « البيروقراطية » هذه ؟

فيستأذن أحدهم مراد أفندى فى قطع روايته ليجيب :

– إنها تحكّم الإنسان فى أخيه ، حينما تسند إليه وظيفة مكتبية فيحولها عن الغرض منها وهو خدمة إخوانه إلى وسيلة لإذلالهم .

ويكمل مراد أفندى قصته وهو بين الموافقة والامتعاض . يقول :

وحينما جاء ميعاد القبض استبقيت للرجل العبادى ثمانين قرشاً من مرتبه بدعوى عدم وجود « فكة » . وجاء الرجل بعد يومين للسؤال عن نقوده فأهملته وتجاهلته ثم أمهلته إلى أن أنتهى من عملٍ وهمىٍّ أمامى ثم أمرته أن ينتظر خارج الخيمة إلى أن أناديه . وطال انتظار الرجل فدخل يذكرنى بحاجته فنهرته وطردته . كل هذا وهو

– على الرغم من شعوره بالإهانة – لا يفطن إلى أننى أقصدها . وكلما جاء بعد ذلك يطلب نقوده كررت إهانته وطردته أمام الناس . . ليكون لهم عبرة ولكى يعرف أمثاله قدر الوظائف الحساسة ، وانصرفت إلى عملى المفتعل وكأننى أسيِّر أمور الدولة .

وذات يوم تقرر أن يسافر هذا الرجل فى عملية استكشاف بقيادة أحد الجيولوجيين ، وتحدد ميعاد القيام من معسكرنا الرئيسى فى منتصف الليل . . على أن تكون العودة بعد شهر من البحث فى الجبال .

وقبل قيام « القول » طلب الرجل من الجيولوجى قائد الرحلة أن يتوسط له عندى فى إعطائه ما تبقى له من المال ، فحضر إلىّ الجيولوجى فادعيت أن ليس معى « فكة » ، فطلب أن أعطيه أى ورقة مالية كبيرة ويحاول هو صرفها ولكننى تهربت . وذهب الجيولوجى إلى رئيس البعثة شاكياً فجاء إلىّ الرئيس نفسه ، وتعجبت ساعَة أنْ رأيته على باب خيمتى كيف يترك عمله الذى لا ينقطع ويحضر إلىّ لأمر بسيط مثل هذا ؟ .

قال لى رئيس البعثة :

– جئت إليك يامراد أفندى لكى أرجوك أن تعطى الرَّجل حقّه وتطييب خاطره بعد ما وجهت إليه من إساءات .

فقلت له : إننى لن أفعل ، وإن هذا ليس ميعاداً للعمل الرسمى ياأستاذ .

ونهرت الرجل أمامه واتهمته بإثارة الفتنة بين المثقفين . فأخرج رئيس البعثة من جيبه ثمانين قرشاً وأعطاها الرجل ، وداعبه وضرب على كتفه . . ثم تأبّط ذراعه ومشى معه كأنه ولىّ حميم ، إلى أن وصلا إلى سيارة الاستكشاف فأخذ يساعده على التدثر بحرامه . وركب الرجل على ظهر السيارة وأخذ يلوح له الرئيس والسيارة تغادر المعسكر فى آخر « القول » حتى اختفت تماماً فى ظلام الصحراء .

ويستطرد مراد أفندى قائلا :

— ولم يعجبنى تصرف الرئيس . . واتهمته فى نفسى بالضّعف وأنه ليس لديه حنكة إدارية ، وأنه على الرغم مما وصل إليه من علم ودراسة ، يلزمه التدريب على فن الإدارة . . فى إدارة شئون العاملين ، فهو لا يعرف كيف يستفيد بما لديه من سلطة فى هذا المكان المنعزل . إن كلمة منه حرّية بأن تفتح بيوتاً أو تغلقها ، والقرار منه يهز وادى عسل وسكانه ، ويسرى صداه إلى كل بلاد العبابدة وإلى الصعيد ، بل إلى القاهرة ، ولايحاسبه فى تلك الصحراء رقيب . لماذا لا يستعين هذا الرجل بإدارىّ أريب مثلى ؟ ! .

والله لو فعل لوضعت كلّ رجل فى منزلته ، وعزلت بينه وبين الناس ، وجعلت الوصول إليه خيالا ، ورفعت مكانته فوق القمر ، ولأصبحت هيبته تهز الجبل ، وعبده الناس إلهاً فى وادى عسل ، واستعاذ بالرحمٰن من شرِّهِ . . أهلُ الوجهين هنا . . والعبابدة أجمعُون .

لكن العلماء قوم لا يفقهون . .

قسماً بهذا القلم لأستمر فى إذلالهم حتى أكون سيداً عليهم كافة . وقسماً باللوائح وخباياها . . التى تعلمتها من رئيسى وأستاذى مدير شئون العاملين ، لأكشفنّ عن جهل العلماء بالقوانين ، وأحول العبابدة إلى عبيد .

وكان من عادتى أن أذهب كل أسبوع مرة إلى البحر الأحمر مع عربة البريد لأستحم وأغسل قيظ الأسبوع كله فى الماء ، ثم أتوجّه فى المساء إلى المقهى الصغير الذى يطل على البحر . وأجلس فى استرخاء وراحة فاحتسى كوباً من الشاى . . وأقرأ صحف الأسبوع وأتمتع بالنسيم العليل بعد الغروب . . متأملا الأفق اللانهائى ، فترتاح نفسى وتتحسن معنوياتى . وجاء اليوم الذى تعودت أن أذهب فيه إلى البحر وكان يوماً شديداً من أيام شهر أغسطس ، تهب علينا فيه « رياح

السموم » فننام على الأرض ونقوم ثم ننام وهكذا ، ولا يوجد مكان فى المعسكر إلا والسخونة فيه كأنها صَهْدٌ من جهنم ، حتى السرير والكراسى كانت سخونتها لا تُطاق .

وقال لى السائق أن اسمى غير مدرج فى أمر الشغل . قلت هذا سهو غير مقصود ، وذهبت إلى رئيس البعثة ومعى دفتر السيارة فقال بهدوء :

-- وهل فى اللوائح ما ينص على أن تستحمّ فى البحر الأحمر يامراد ؟ ، وهل جاء ذلك فى خطاب مأموريتك ؟ !

قلت : وهجير الصحراء ؟

قال :

-- دلنى يامراد أفندى على مادة واحدة فى اللائحة تتكلم عن هجير الصحراء . . إننى أطبق القانون كما تطبقه أنت ، وإنك رجل إدارىّ أريب .

ولما سمعْتُ صوت السيّارة تتحرك بدونى شعرت كأن رئيس البعثة قد وضعنى فى المعتقل . . بل فيما هو أقسى ، لأننى لا أتصور معتقلا تصل فيه درجة الحرارة إلى هذه الدرجة ، فرجعت إليه لأسأله :

-- ومتى تسمح لى سيادتك بالذهاب إلى البحر ؟ .

فقال بفتور :

-- بعد ستة أشهر حينما تنتهى مأموريتك ، وأرجو أن تنصرف لكى لا تعطلنى يامراد أفندى .

وبقيت فى لهيب الجبال بدون أى نوع من الترفيه . كان نومى قليلا لارتفاع الحرارة بالليل كما هى فى النهار . وقاطعنى هذا المجتمع الصغير وصارت بينى وبينهم جفوة ، وساءت حالى واعتلت صحتى وكدت « أنفق » بين الجبال ، وشعرت بوطأة مرض نفسى يطلقون عليه الاكتئاب . وكان أكثر ما يضايقنى الذباب . .

فهو لا يُذَبّ ولا يخاف وكأنما أوصاه الرئيس بى ليتلف أعصابى . وأخذت ألاطف رئيس البعثة وأجامله عسى أن يرحمنى ، غير أن الرجل كان له قلب قُدّ من صوان ، فأخذت أتمارض حتى مرضت ، وعافت نفسى الطعام وضعف جسمى وخارت قوتى . . إلى درجة أننى لم أكن أتمكن من القيام إلى « المنخر» لقضاء حاجتى ، فكنت أتوكأ على مقشة من النوع الطويل أمسكها فى وضع مقلوب ، عكازتها على الأرض ومكنستها تحت إبطى ، وأصبحت المقشة ملازمة لى . . فأطلق علىّ النّاسُ «أبومقشة» ولاحقنى هذا الاسم بعد ذلك فى كل مكان.

وفوجئت برئيس البعثة ذات ليلة . . يدخل علىّ ، ليزورنى ويحادثنى فى شئون شتى من الحياة وكأنه لا يوجد بيننا جفوة . وأصبح من عادته كل مساء أن يحضر للسمر معى . . ويدير أعمال البعثة من داخل خيمتى .

وشعرت بصداقة نحوه . .

وذات يوم فاتحته لأعتذر عما حدث بيننا بخصوص الرجل العبادى . . ولكنه بادرنى بالاعتذار :

– لا تظن ياأستاذ مراد أننى أكون سعيداً عندما أضطر إلى تطبيق القانون بهذا المفهوم . .

ولم يتكلم بعد ذلك نهائيًّا فى هذا الموضوع .

وتعلمت بعد ذلك من تقاليد الصحراء ، أن الكبير عليه أن يعتذر للصغير . إلا فى حالات نادرة . .

وقال لى رئيس البعثة :

– عندما يضلّ رجل طريقه فى الصحراء ، أو تخرج سيارة عن طريقها المألوف . . وتضيع فى مجاهل الجبال . . يومها سوف ترى بنفسك يا أستاذ مراد ، مروءة العبابدة التى علمتها لهم تلك الصحراء .

ويوم أن عادت الحملة سالمة شعرت بفرحة عودتهم وسعادة اللقاء . . ورحبت بالعبادى واعتذرت له كما اعتذر لى رئيس البعثة من قبل . ولما انتهت مدة مأموريتى . . شعرت برغبة أكيدة للبقاء . هنا فى البعثة . . وحتى الآن . .

* * *

وبعد أن ينتهى مراد أفندى من قصته ، يصمت قليلا ثم يبتسم بخبث قائلا :

– وإن قصتى هذه قصة بسيطة لو قورنت بقصة جعفر الأقرع يوم أن تمرد على الريس عبد الشكور .

ويثور جعفر قائلا :

– إذا كنت تعترف من خلال قصتك بخطئك فإننى مقتنع أننى كنت على حقّ فى تمردى على الريس . إن الصمت الذى يتسم به هذا الرجل يخفى تحته اللؤم والطغيان . وإنّ اللّه سوف يعاقبه على إذْلالِهِ للنّاسَ بحجة حمايته لهم .

ويسأله بعضٌ مَنْ لم يعاصر تلك القصة أن يرويها . فيحاول تغيير موضوع الحديث لكنّ واحداً من الأشقياء يسردها باختصار :

القصة الثانية :

كان جعفر ، وهو شابٌ مستنير من إحدى قرى الصعيد ، يعمل فى وادى العطشان ضمن رجال الريس عبد الشكور . وهو ليس أقْرعَ ولكنه أصلع . . تنطق عيناه بالذكاء والطموح . وعلى الرغم من أنه لا يستطيع الكتابة فإنّه قادر على القراءة ويمكنه أن يكتب اسمه بالكامل بدلا من استعمال « الخاتم » عند قبض الرّاتب وطلب الإجازات . وهو إلى جوار اطلاعه فى الصحف والمجلات القديمة إنه يمتلك مذياعاً صغيراً يستمع إلى برامجه الثقافية المتنوعة أثناء اللّيل . وكان أكثر ما يطربه أحاديث الاشتراكية .



ومرت الأعوام .. ونحن نتنقل بين السهول والجبال



ذات يوم تجرَّأ على بطانة الريس عبد الشكور وجالسهم بدون دعوة ، وتدخل فى كل حديث يدور . . مُعارضاً ومُجادِلاً . وكانت لجاجته هذه تسبب كثيراً من الحرج للريِّس لأنه كان يناقشه بعباراتٍ لا يستطيع الرَّد عليها ، فالرجل لم يتعود إلا أن يكون آمراً أو مأموراً ، ووجد أنه لو تمشى مع الأقرع فى هذا الجدل فإن سطوته سوف تتعرض للاهتزاز .

وفى يوم أمره الريس أمراً فاعترض فنهره وأهانه ، وأقسم الأقرع إنّه سيغادر معسكر الريس عبد الشكور ، وإنه سوف يكون مجرماً إنْ رضى بالهوان والبقاء فى وادى العطشان . . ضمن المستضعفين .

والأقرع يعرف درباً بين الجبالِ يصل وادى العطشان بمعسكر الرئاسة فى وادى عسل ، وسوف يغنيه هذا الدرب عن استعمال الطريق الملتوى الذى تمر به السيارات خلال المنعطفات .

وبعد أن هدَّد بهذا وأقسم ، دخل خيمته وحمل «بقجته» ونظرَإلى الناس قائلا بصوت ثائر مرتفع : إلى متى تبقون هنا . . وترضون بالذُّلِ والهوانِ ؟

فوجدَ نفسه مُلْقى على الأرض مضرجاً بالدماء ، مكسور الفك منتفخ العينين وراح فى غيبوبة .

وأفاق الأقرع وفتح عينيه فوجد أنّه ممدَّدٌ على الأرض فى ظلام دامس ، ولم يعرف أهو محبوس فى مكان مظلم أم أن اللكمة التى تلقاها من عبد الشكور قد حولتا إلى أعشى . وتبين بعد ذلك أنه مقيد بحبال غليظة ومُلْقى على الأرض فى خيما قديمة وراء أحد التلال . ومرت عليه أيام عسيرة كان يُلْقَى إليه فيها بِكسَرٍ قليلة من الخبز اليابس وقليل من الماء تكفى فقط لبقائه ضمن الأحياء . وقضى على هذه الحال خمسةأيام ، عرف ذلك من تعاقب الليل والنهار . . الذى كان يرقبه من ثقب صغير فى أعلى الخيمة .

وذات ليلة سمع صوت سيارة قادمة ، وأرهف السمع فتبين أنها سيارة « جيب » . وبما أنها من هذا النوع فلا بد أن يكون فيها أحد الجيولوجيين . ولكن لماذا يأتي أحدهم ليلا في غير ميعاد العمل ، وبكى حينا توقع أن يكون رئيس البعثة قد علم بالخبر فأرسل من يحقق في الموضوع ويقتص له من الريس عبد الشكور . ووصلت السيارة وإذا بداخلها رئيس البعثة نفسه . ولا يعرف أحد كيف وصل إليه الخبر ، فقد قصد خيام العمال مباشرة . . وبعد تحية مقتضبة دخل في الموضوع وسأل الريس :

أخبرني ياريس عبد الشكور . أصحيح أنك ضربت جعفر الأقرع ، ضربة هشمت فكه وأنك تعتقله في إحدى الخيام بعيداً وراء التلال ؟

وأجاب الرجل بالإيجاب ، فهو ماكر وداهية . قال :

— نعم ولو كان ابني ما فعلت به أقل من ذلك ، لقد تحملت منه ياسعادة البك انصرافه عن العمل . . وحبه للجدل . ولكني لا أتحمل أبداً وزره أمام الله ، إن خرج من وادي العطشان تحت جنح الليل حيث لا يوجد إلا ضوء النجوم ، يريد أن يمشي بين الجبال في طريق غير معلوم ؟ ! فقيدته وحفظته في الأمان لوجه الله العزيز الحكيم ، وعملت ليوم لا ينفع فيه مال ولابنون .

وكان هذا المنطق مثاراً لإعجاب الرئيس ، فأمر بالأقرع . . وأنبه على تمرده وطلب منه الاعتذار للشيخ الطيب ! . . الريس عبد الشكور .

القصة الثالثة :

كان عمر العبادي يعمل في أحد المعسكرات التابعة للمعسكر الرئيسي . وقد بدأ الشعور بالظلم في نفس الرجل . . حينما رأى بعض زملائه من العمال يعملون في المعسكر ولايخرجون للعمل في الجبال في رحلات البحث والاستطلاع ، وشعر بأن

ما يقومون به من أعمال الطبخ فى « الميس » أو الخدمات شيئاً لا يذكر بالنسبة لطبيعة عمله الشاق .

وبدأت ثورته بأن قال للجيولوجى الجديد قائد المعسكر الصغير : أمِنَ العدل أن تعاملوا من يعيش فى المعسكر مترفاً فى ظل الخيام أو الكشك الصاج ، وأمامه الماء البارد طول اليوم ، معاملة من يبحثون فى الجبال ؟

وازداد سخطه حينما علم من أحد المثقفين أن العمل الذى يقوم به خطير ، وأنه سوف يموت ناقص العمر بدون أن يدرى به أحد ، ولما سأل المثقف عن السبب قال له :

— ألست عامل تخريم ؟

قال : بلى .

فقال له المثقف :

— إن الوابور الذى تخرم به فى الجبل طول النهار ، يثير غباراً كثيفاً تستنشقه ويدخل فى جوفك . ألا تعلم أن هذا الغبار عبارة عن مادة اسمها اليورانيوم ، تسبب مرضاً خبيثاً اسمه السرطان ؟ ، إنه ينهش جسمك ويقتل خلايا الدم فيه ، وعليك أن تشرب كثيراً من اللبن كل يوم ياعمر ، وأن تتناول غذاءً قويًّا فقد يساعد على مقاومة السرطان .

فذهب إلى الجيولوجى ثائراً ، واحتد عليه . وحاول الجيولوجى الشاب أ. يقنعه قائلا : ألست أنزل الخندق معك كل يوم ياعمر واستنشق معك الغبار وأننى معرّض مثلك لنفس الداء ؟ ، كما قال له إنه مقيد بلوائح الحكومة ولا يستطيع له شيئاً .

واحتدم النقاش عدة مرات إلى أن أصبح عراكاً يوميًّا .

وفى فجر أحد الأيام ، قفز عمر من السيارة الواقفة على أهبة الاستعداد

للخروج للبحث فى الجبال ، وأقسم أنه سيمشى على قدميه حاملا « زمزمية » من الماء إلى أن يصل إلى المعسكر الرئيسى فيشكو الجيولوجى الجديد إلى رئيس البعثة.

ولم يصدق أحد أنه سيركب رأسه وقدميه ، ويمشى وحده فى ذلك الطريق الوعر ، وأنه سيقطع المسافة سيراً على الأقدام . فتركوه فى المعسكر وخرجوا إلى عملهم اليومى المعتاد . ولكن عمر كان صادقاً فى قسمه . فخرج بعد تحرك السيارة بدقائق .

وكان يوماً من الأيام الطويلة فى حياته .

فقد كان ذلك فى شهر أغسطس الذى يكون لهيب الجبال خلاله ، ليس له نظير فى أى شهر من شهور العام ، ونفد منه الماء فى الربع الأول من الطريق وتورمت قدماه .

وصل عمر فى منتصف الليل والجميع نيام . فنبح كلب فى طرف المعسكر الفسيح وقام صاحب الخيمة ، فلربما هو جمل ضالّ اقتحم المعسكر ليمرح فى ساحته ويلقى « بالباستيلات » الصغيرة أمام الخيام . . أو ثعلب يبحث عن بطة أو دجاجة . فوجد عمر وقد أنهكه التعب . .

وكان أول سؤال وجهه عمر إلى الرجل :

— من هو الرئيس فى تلك الأيام ؟

فعلم أنه محمد الغوابى .

وكان وقع هذا الخبر عليه أسوأ مما عانى طول يومه فى الفيفاء . وأسقط فى يده ، فهو يعرف أن الغوابى لا تأخذه رحمة بأى رجل يتمرد على من يقودون المعسكرات التابعه . .مهمها كانت الأسباب . وقد كان بوده أن تنشق الأرض فتبتلعه إشفاقاً من أن يقابل الغوابى وهو على تلك الحال . ولو أطاعه بدنه لرجع ليعتذر إلى الجيولوجى الشاب مهما كان اقتناعه بحقه فى التمرد . وأخذ يخبط كفاً

بكفّ قائلا وهو غير مصدق للخبر :

– هل الغوابى من أهل الخطوة ، أو هو عفريت من الجن ؟ !

ثم سأل صاحبه :

– أمن المعقول أن يعود هذا الرجل من « بلاد بره » بهذه السرعة ؟ ! . يقولون إن البلد الذى سافر إليه أبعد مما يتصور الإنسان ، إنه فى آخر الدنيا ويفصلنا عنه جبال جرداء وبحر وريف ، ثم جبال أخرى سمعت أنها جبال خضراء فيها الزرع والأشجار ! فرد عليه الرجل قائلا :

– هل تعرف طائر الحديد الذى تراه صغيراً فى السماء ، وتسمع ازيزه فوق السحاب ؟ ، إنه أسرع من السيارة أضعافاً مُضاعفة ، وإن هبط على الأرض كان أكبر حجماً من عشرات الجمال ، يركبه أى رئيس ويمشى به فى الدنيا الواسعة التى لا نعرف نحن أبعادها . .

فاقتنع الرجل وأسلم أمره لله . ولم يغمض له جفن على الرغم من إرهاقه الشديد . وعندما علم الغوابى بالأمر فى الصباح ، نكل بالرجل وجعله عبرة لمن تسول له نفسه التمرد أو العصيان .

ومن العجيب أن هذا الرجل بالرغم من قسوة الغوابى عليه ، يكنّ له أعمق الحب والاحترام . فقد حدث بعد هذا الموضوع بأعوام أن كان عمر يعيش معى فى أحد الجبال ، وطلب منى أن يسافر إلى قرية على بعد سبع ساعات بالسيارة ، والطريق إليها شاق وعسير . وسألته عن سبب رغبته فى السفر ، فقال إنه يريد أن يذهب إلى كاتب القرية فيدفع له « شيئاً » (أظن مقداره عشرة قروش) ليكتب خطاباً إلى محمد الغوابى ، فقد استبد به الشوق إليه ، وعرضت يومها أن يقوم أحد من المعسكر بهذه الخدمة نيابة عن كاتب القرية فرد علىّ بأن الكبير (يقصد حكماء العبابدة) قال حكمة معناها أن عليك أن تعطى الشئ لصانعه ولو أتعبك فى الثمن ،

وكاتب القرية عنده من الأسلوب المنمق ما يليق برجل طيب مثل محمد الغوابى .

والواقع أن حب عمر للغوابى يرجع إلى حقيقة أساسية . لأن الشدة المعروفة عنه فى قيادة البعثات . . تحمل بين طياتها أمناً لهؤلاء الرجال العاملين فى الجبال ، فهم ينظرون إلى الرجل القوى نظرة كلها إعجاب واحترام ، ولأنهم فى وسط هذه الصحراء بما فيها من أخطار ، وبسبب خلوها من أى سلطة وضعية ، يقدسون قوة الرئيس حتى لو وصلت إلى درجة الاستبداد .

القصة الرابعة :

هذه قصة رجل حاق به الهم من طول عيشه فى الصحراء . .

كان صبحى — كما قلنا من قبل — سائقاً يعشق سيارته ولا يرضى أن يركبها سائق سواه . وهو إن طلب إجازة لنفسه فإنه يطلب إجازة فى نفس الوقت للسيارة ، فهو ليس بالساذج أو الديُّوث الذى يسافر إلى بلده ويترك سيارته للآخرين يعبثون بها ويركبونها الواحد بعد الآخر . وفى كل مرة تقبل إجازته وتُرفض إجازة السيارة لحاجة العمل إليها ، فيتنازل عن إجازته مفضلا البقاء إلى جوارها والاستغناء عن رؤية أولاده وذويه .

وذات يوم تصرف تصرفاً عجيباً لا أفهم ماوراءه من ألم نفسى . .كان يعانيه .

كان صبحى يهوى صيد السمك من البحر الأحمر ، وله خبرة فى اصطياد « القرش » بسنارات ضخمة وأربطة متينة .

ذهب مرة إلى « القصير» لإحضار الماء بسيارته « اللورى » وتَسلُّمِ البريد . ولكنه بدلا من أن يتوجه إلى المكثف ومكتب البريد ، ذهب إلى ساحل البحر الأحمر فى مكان قتل فيه زميل من قبل بواسطة سمك القرش . وترك صبحى حذاءه على صخرة ناتئة فى داخل الماء ، كما ترك بعض أشيائه الخاصة ومنها أدوات الصيد

مقطعة الجبال بحيث يعتقد من يبحث عنه أن « القرش » جذبه بدلا من أن يجذبه هو ، ويتغذى على جسمه مثلما فعل بزميله من قبل ، ولما تغيب عن ميعاد وصوله إلى البعثة أرسلوا للبحث عنه فى كل مكان بالقصير ، ثم ذهبوا خائفين إلى الموضع المشئوم من ساحل البحر . . فوجدوا حاجاته ، ورأوا سيارته واقفة بالقرب من الصخرة الملعونة وكأنها تنتظره حتى نهاية العمر .

وبالبرق أبلغ رئيس البعثة عن وفاة المرحوم صبحى ، وسافر وفد من الهيئة بالقاهرة إلى دمنهور . . لكى يبلغوا الأسرة الخبر الأليم ، ويقوموا بالنيابة عن زملائهم بتأدية واجب العزاء .

وطرقوا الباب ووقفوا منكسى الرءوس تترقرق من عيونهم الدموع . . يرتبون الكلمات ويختارونها بصعوبة ، ليكونوا منها عبارة يبلغونها للأسرة المنكوبة . وفتح الباب . . وبدءوا الكلام بدون أن يجرءوا على النظر فى وجه الشخص الذى فتح الباب . . ، وبعد أن انتهوا من قول الخبر الحزين . . نظروا فأخذتهم الدهشة . .فقد وجدوا أنفسهم أمام المرحوم فعانقوه جميعاً فرحين . . وبعد أن زاولهم العجب وهدءوا . . سألوه : لماذا فعل ذلك ، فصمت طويلا ثم قال :

– زهقت والسلام

وربما كان صبحى يحتاج إلى كثير من العطف والرثاء ولو لبضعة أيام – فرحب بنزول العقاب الصارم عليه مقابل أن يحظى بهذا الرثاء .

* * *

الرحيل

فى إحدى أمسيات الخميس ، وصلت سيارة التموين الأسبوعية وبها برقية لها شأن كبير .

وما جاء فى تلك البرقية كان مهمًا ، إلى الدرجة التى طار خبرها إلى كل مكان فى بلاد العبابدة ، وعلم بها السكان سواء من يعمل منهم فى البعثة الجيولوجية ، أو الرعاة فى الجبال ، كما امتد خبرها إلى العبابدة ذوى الاستقرار النسبى على مشارف البلاد ، وعلم بها أهل « القرى المنجمية » التى لم يكتمل نموها بعد . . مثل قرية حماضات والفواخير وكذلك التجار الذين يتعاملون مع رجال البعثة منذ سنوات .

البرقية مرسلة من الدكتور رئيس البعثة الموجود بالقاهرة موجهة إلى « البعثة » . . يطلب نقل المعسكر الرئيسى بوادى عسل . . وكذلك المعسكرات التابعة له سواء فى وادى المطشان أو وادى الكريم ، إلى جبل أم نقاط ، كما يقول

إنه سيصل إلى « قنا » فى قطار الوحدة (أى المجرى) بعد خمسة أيام ، ومعه خبراء يوغسلاف سوف يعملون معنا لمدة شهر واحد ، ويطلب أن تنتظرهم سيارتان لاندروفر ولورى لنقلهم إلى مكانهم فى المعسكر الجديد .

وما إن تسربت أخبار البرقية إلى خيام المعسكر المتناثرة فى وادى عسل ، حتى سارع البعض بطبخ ما وصل إليهم من طعام ، وأكلوه دفعة واحدة حتى لا يفسد فى أثناء النقل وبالذات اللحوم . وسد ديونه للرعاة كل من عليه دين ، وأرسل بعضهم حساب محمود لواس التاجر بالقصير ، أو أرسل له خطاباً يصبره فيه ويطمئنه أنه لن ينساه عندما يقبض المتأخر له من بدل الصحراء . وذهبت السيارة التى تنقل معها تموين الرجال الموجودين فى المعسكرات التابعة بوادى العطشان والكريم . . برسالة من رئيس البعثة بالنيابة . . الجيولوجى حسن عساف بأن يستعدوا للرحيل ، ولكى يبلغهم أن الغد الجمعة ليس راحة . . ولن يذهب أحد منهم إلى القصير ، وعليهم أن يستغلوا يوم الراحة فى خلع الخيام « وترتيب » المعدات ، على أن يكون الرحيل فجر السبت .

وتوسط أهل الخير طالبين من الرجل الطيب أن يمهلهم يوماً ليطبخوا فيه طعامهم ، وأن يسمح لهم بالذهاب إلى القصير فى ترفيههم الأسبوعى المعتاد لكى يصلّوا الجمعة فى الجامع . . ويسددوا بعض ديونهم ، فأذن لهم ، وحدد للرحيل موعداً آخر هو فجر الأحد بدلا من فجر السبت ، وإنّ له فى هذا نظرة حكيمة ، وهى أن يجعل مساء السبت يوم التجمع فى المعسكر الرئيسى بوادى عسل ، حتى يخرج الجميع فى قُول كبير إلى المنطقة الجديدة بجبل أم نقاط .

قال عساف :

— أريد النظام والسرعة أيها الرجال فى خلع المعسكر ، وأهم شىء الخرائط

عليكم بحفظها فى صناديق مغلقة توضع فى سيارة لا يشاركها فيها « خزانات » الماء أو الوقود ، وأما أصول الخرائط فإنها سوف تبقى فى سيارتى فهى إنتاج البعثة كلها خلال السنوات الماضية . وإذا ما انتهيتم من خلع الخيام وفك الأكشاك وتحميل السيارات بالمعدات ، عليكم أيها السائقون باتباع النظام . سيارتى ستكون الأولى . . تتلوها سيارة الجيولوجيين ثم باقى العربات الجيب ثم سيارات النقل الثقيلة . وعلى كل سائق أن يعرف من معه من رجال وما معه من معدات . وممنوع عليه تجاوز السيارة التى أمامه أو ينحرف عنها ليسلك مدقاً أو طريقاً آخر على أمل أن يلتقى بالقول بعد فترة معينة فقد يضل الطريق ، كذلك عليه أن يراقب السيارة التى خلفه طول الرحلة . فإن مشت سيارتى مشيتم جميعاً وإن توقفت توقفتم جميعاً .

* * *

ولم يكن خبر الرحيل شديداً على الرجال وحدهم ، فقد كانت وطأته أكثر على الحيوان . وكان أكثر الأجناس ذُعراً . . جماعة الكلاب . .

كان سلوكها يدل على أن القلق على المصير والمستقبل اشتدت وطأته . .

فقد ولدت وترعرعت فى معسكر البعثة ولا تعرف لها مكاناً آخر ، وبين يوم وليلة وجدت الخيام ، تقلع من أوتادها وتحمل فوق السيارات الضخمة . وأما الأكشاك فكان لإزالتها وقع أشد على هذه الكلاب ، فقد عهدتها ثابتة فى أماكنها منذ أن رأت النور لأنها كانت تصمد أمام الدوامات الهوائية أكثر من الخيام .

وبعد أن زالت ملامح المعسكر وبدأ الناس فى التحميل ذعرت معظم الكلاب عندما رأت المحسوبية واضحة ، فالكلاب أيضاً منازل ودرجات ، وتتوقف منزلة كل كلب على منزلة صاحبه ومركزه الاجتماعى بالبعثة ، ويستمد الكلب وضعه بين الكلاب من شخصية صاحبه بين الرجال ، فهذا كلب الريس عبد الشكور له مكان فى السيارة ، وكلاب السائقين لكل منها مكان محفوظ ، وكذا كل كلب

يكون من محاسيب أحد أعيان وادى العطشان . ولا شك أيضاً أن كلب الرئيس هو بالتالى رئيس الكلاب .

وقبل غروب شمس يوم السبت تحركت السيارات من المعسكرات التابعة للبعثة . . الموجودة فى وادى العطشان ووادى الكريم لتتجمع كلها فى معسكر رئاسة البعثة بوادى عسل . وذعرت الكلاب التى ليس لها واسطة تؤهلها لركوب السيارات . لكنها لم تفقد الأمل فقطعت الطريق جرياً وراءها ووصلت إلى المعسكر الرئيسى فى الهزيع الأخير من الليل قبل رحيل القول الكبير . وقد ظنت تلك الكلاب المسكينة أنها حققت أمنيتها عندما وصلت سالمة ، وأن المعسكر الرئيسى هو غاية الرحلة ، ولم تعرف أن الرحلة الكبيرة لم تبدأ بعد . ولكن لم يلبث القلق أن ساورها من جديد عندما لا حظت الاستعدادات للرحيل الكبير .

التفّت الكلاب . . وكلها أقارب . . حول زعيمها وولى نعمتها وسبب وجودها فى تلك الأماكن عبد الرحمٰن الذهبى ، الذى جاء بجدها وجدتها منذ سنوات إلى تلك البقاع . . ، كأنما تسأله عن مصيرها هنا بعد الرحيل . وعبد الرحمٰن يشفق عليها كل الإشفاق ولكن ما باليد حيلة ، فهو لا يستطيع أن ينقلها كلها إلى المكان الجديد ، وقد اختار منها ذكراً وأنثى سينشئ بهما قبيلة جديدة من الكلاب ، كما فعل نوح عليه السلام .

وما كاد الركب يتحرك فى الفجر حتى نبحت الكلاب التى جاءت من المعسكرات التابعة والتى سافرت طول الليل . . نباح الاحتجاج ، لأنها مجهدة ولا تستطيع مواصلة الجرى وراء العربات ، وقد أدرك بعضها اليأس حينما شعرت بأن هناك رحيلا أكبر فلم تستطع القيام من أماكنها للحاق بالركب ، فتركت نفسها لمصيرها المجهول .

ومع تحرك القول ، جرت جماعة كبيرة من الكلاب خلف السيارات فى منظر

مهيب . شباب الكلاب . . ذوات الصحة والفحولة فى المقدمة ، والحوامل وكبار السن والجراء كانت فى المؤخرة . وقد واصلت الجرى منذ الفجر حتى اشتدت حرارة الشمس فى الثامنة صباحاً ، وأدرك اليأس بعضها فى أثناء الطريق ، فرقدت يائسة لا حول لها ولا قوة ، وتسلح البعض الآخر بالأمل لأن الركب لم يكن يمشى بسرعة كبيرة بسبب الغرز والمطبات بالإضافة إلى الأثقال .

وربما كان كل كلب يحادث نفسه وهو فى ذروة الإجهاد ، عن غدر الإنسان ووفاء الكلاب ، فهو منذ نشأته فى وادى عسل كان يحرس خيمة صاحبه فى أثناء غيابه ، وكثيراً ما هجم الثعبان على صاحبه هذا وهو راقد على الأرض لا يدرى من أمر نفسه شيئاً ، فتصدى له وعرض نفسه للهلاك وقتل الثعبان دفاعاً عنه وهو يغط فى نومه من الإرهاق . . ولم يستيقظ على الرغم من شراسة المعركة التى كانت تدور على بعد قفزة واحدة منه . وكلما ارتفعت الشمس فى أفق الصحراء تناقص عدد الكلاب ، إلى أن أصبح قرصها متوهجاً فى كبد السماء ، وبقى كلب واحد فى ريعان شبابه . . قوى العزيمة . . شديد البأس ، له من اللياقة والصحة ما مكنه من مواصلة الجرى . ولكن العزيمة لها حدود لا يستطيع الإنسان أو الحيوان تجاوزها على كل حال ، فقد أدركه اليأس أخيراً وأنهكه الإجهاد ، فرقد فى بطن الوادى مستسلماً ينظر إلى الرّكب وهو يختفى فى أفق الصحراء . . لا يطيعه بدنه لتحقيق حلمه فى النجاة وأمله فى الحياة . ومن حسن حظ الكلب أن أصيبت إحدى السيارات بعطب طارئ ، فقام من رقدة اليأس واستأنف الجرى إلى أن وصل إليهم ، فقفز فوق ظهر السيارة ورفض بعشم أن ينزل منها وأخذ يستعطف الرجال بكل ما أوتى من مواهب التملق التى ميزبها الخالق جنس الكلاب . . بذيله وفمه ويديه ودموعه ، حتى رق له رجل من أولى الأمر فوافق على بقائه معهم . وهكذا فإن البقاء للأصلح حتى فى عالم الكلاب .

فى جبل أم نقاط

وصلنا إلى جبل أم نقاط فى الهزيع الثانى من الليل ، وبدأ الرجال فى « تعتيق » الخيام من فوق سيارات النقل ، والأدوات الضرورية الخفيفة اللازمة لقضاء الليل مثل البطاطين وبعض الأطعمة المحفوظة من سيارات الجيب . وتركنا المعدات الأخرى فى سيارات النقل حتى الصباح.

ونشط الطبّاخون لإعداد طعام سريع به نسبة كبيرة من الرمال . ولم يكن فى الليلة الأولى استقرار ، فمن وجد له مكاناً فى «كابينة » إحدى السيارات فهو حسن الحظ ، ومن عثر على غطاء فقد فضل النوم على ظهر سيارة . ومنهم من نصب خيمة مؤقتة بالاشتراك مع أقاربه أو بلدياته وناموا فيها على الأرض حتى الصباح . ومع الخيوط الأولى من النهار هبّ الناس إلى إنشاء المعسكر. وكما هو المعتاد فإن الخطوة الأولى هى تطهير الوادى من شجيرات الشوك ، سواء بخلعها أو إشعال النار

فيها ، فهبت الحشرات المحتمية بها من رقدتها ولحق الرجال ببعض العقارب والثعابين فقتلوها ، وهرب أكثرها بعيداً . وكان الممرض فى أثناء عملية التطهير يقظاً ومعه الحقن مجهزة ، استعداداً لغوْثِ أى مصاب . ولم تقع غير حوادث طفيفة ، عبارة عن لدغ العقارب ، وهى بسيطة إذا قورنت بحوادث « الطريشة » التى لم تصب أى أحد بسوء .

ولما جاء الأصيل كان المعسكر قد اتخذ نظامه المعتاد ، واستقر الجميع فى خيامهم آمنين .

وفى صباح اليوم التالى كان أمامنا مشكلة اختيار ، فقد كان نفس اليوم الذى سيصل فى مسائه رئيس البعثة ومعه الخبراء اليوغسلاف إلى قنا ، وعلى السيارات أن تذهب لإحضارهم . وفى نفس الوقت لم يكن هناك ماء فى المعسكر ، ولم يكن من الممكن أن تؤدى السيارات المهمتين فى يوم واحد .

وأعلن واحد منا أن له معرفة وثيقة بمدير منجم أم غيج . . فقد كان زميلا له فى كلية العلوم جامعة الإسكندرية ، وهذا المنجم هو أحد المناجم الموجودة على ساحل البحر الأحمر ، ينتج الزنك والرصاص ، ولايبعد عنا إلا ساعات قليلة بالسيارة ، واقترح أن يذهب إليه ويقترض منه كمية من الماء ، وبذلك تستطيع السيارات أن تكون فى قنا وقت وصول الضيوف

وفى منتصف الليل رأينا أضواء السيارات تضىء قمم الجبال البعيدة ثم سمعنا أصواتها قادمة نحو المعسكر .

وعرفنا منزلة كلٍّ من القادمين قبل التعارف ، من نوع السيارة التى يستقلها وموضعه فيها . نزل من السيارة الأولى الدكتور حسين عبد المحسن رئيس البعثة المصرى ، ومعه رجل أوربىّ أحمر الوجه نحيف الجسم كث الشارب ، عرفنا بالطبع أنه كبير اليوغسلاف . ومن السيارة الثانية نزل أوربيّان آخران عرفنا أنهما

جيولوجيان . ومن « اللورى » نزل شابان لاشك أنهما مساعدان للجيولوجيين .

وبدأ الدكتور حسين يعّرفنا بأسماء ضيوفنا اليوغسلاف ، ودخلنا خيمة الميس ، ودار الحديث باللغة الإنجليزية . وكان رئيس البعثة المصرى ورئيس اليوغسلاف هما نجمى الجلسة ، فقدكان مراسها فى اللغة يسهل لها تناول كل الأمور ببساطة وبدون جهد .

وقال الدكتور ديمترى ديمترفتش كبير الأجانب أنه كان سعيداً طوال رحلته عبر الصحراء الشرقية من قنا إلى ساحل البحر الأحمر . . لما وجده من تراكيب جيولوجية رائعة . وقال إن الصحراء المصرية مدرسة نموذجية لعلم الجيولوجيا لا تتوفر فى شبه جزيرة البلقان أو فى أى مكان آخر من أوربا ، ويرجع ذلك إلى أن جبالها مكشوفة وليست مغطاة بالغابات كما هى الحال فى بلادهم . وقال إنهم سوف يشتركون معنا فى العمل لمدة شهر واحد فقط لكى يستفيدوا من الوسائل التى نتبعها فى التنقيب عن المعادن فى الصحراء . . والتى نشرت فى المؤتمرات العلمية ، وأنهم قد وجهوا إلينا الدعوة لزيارة بلادهم لكى نرى نحن أيضاً على الطبيعة طريقة التنقيب فى الغابات . وبذلك يكون كل فرد من الجماعتين مُلمًّا بطرق التنقيب فى الصحراء والغابة .

كنا نفهم كل ما يدور بالإنجليزية ولساننا لا يساعدنا على النطق . ولكن عقدة لساننا حلت ، عندما وجدنا أن زملاءنا اليوغسلاف يتهيبون الكلام بالإنجليزية مثلنا ، وأن جهلهم بها أكثر منا ويسألوننا فى معانى كلمات بسيطة ، فازدادت ثقتنا بأنفسنا وأصبحنا بعد فترة وجيزة نتكلم الإنجليزية ونتعامل بها بلا خشية أو خجل من الأخطاء .

وكانت الليلة التالية هى ليلة رأس عام ١٩٦٣ . وأقيمت بتلك المناسبة وليمة كبيرة تحمَّل الجانب المصرى فيها ثمن الطعام وأما الجانب اليوغسلافى فكان

عليه الشراب ، لأن معظم الاعضاء المصريين أفادوا بأنهم لا يشربون الخمور.

وقد أشرف إبراهيم القصاص على الحفل ، فأمر بخيمتين كبيرتين فنصبتا بطريقة متصلة وصفت بداخلها الموائد ونظمت المقاعد بحيث يختلط اليوغسلاف تماماً بالمصريين حتى تنمو الصداقة وتزول الكلفة ، وعجيب أن كُلاًّ منا دخل خيمة الحفل – وبدون أى اتفاق فيما بيننا – أنيقاً حليق الذقن ، يلبس زى السهرة كاملا ورباطاً للعنق ! ، كأنما نحن مدعوون إلى حفل فى مكان رسمى عظيم ، وليس فى خيمة على سفح جبل أم نقاط وقال كلٌّ منا لزميله لقد فعلت هذا لأن الليلة فرصة لكى أشعر بالمدنية وأنسى شظف العيش فى الصحراء.

وقام رجل من اليوغوسلاف فأعلن أنه لن يكون لتلك الليلة جمال حقيقى إلا بوجود المرأة ، ونزع ورقة بيضاء كانت ملصقة على المنضدة فى الجانب الأيمن منه فإذا صورة لامرأة بارعة الجمال ، قال إنها زوجه ، فهو لا يستطيع أن يقضى ليلة رأس السنة إلا معها . وطلب من كل منا أن ينزع الورقة التى بجواره ليلتقى بصديقة أعدها له .

وبدأ البرنامج فكان به من الألعاب والدعابات ما أسعد الجميع . وامتد اللهو والسمر حتى ساعة متأخرة من الليل . وفى نهاية الحفل كانت آخر فقرة فى البرنامج عبارة عن سؤال موجه إلى كل فرد من المحتفلين :

– ماهو الأمل الذى تتمنى أن يحققه لك العام الجديد ؟

والتقى الجميع على أمل واحد ، أن تزداد صداقة البلدين ، وأن ينمو التعاون العلمى والتكنولوجى بين دول عدم الانحياز ، وأن ينجح الجيولوجيون المصريون خلال العام الجديد فى اكتشاف مواقع مهمة لليورانيوم فى صحراء مصر الشرقية .

سائق الوزير

ذات يوم . . جاء سائق جديد إلى معسكرنا فى وادى الدباح . . وهو أحد أودية الصحراء الشرقية الذى حططنا فيه ، واستقر بنا المقام فيه لمدة عام أو يزيد .

كان هذا السائق مؤدباً خفيض الصوت . . طيب الطباع ، لديه أسلوب مهذب ارتاح إليه الرجال الذين قست عليهم الصحراء . . فأكسبت طباعهم الخشونة والجفاف .

وقد احتل الرجل منزلة طيبة بين القوم ، بما كان يقصه عليهم من حكايات جميلة تخلب لب سكان الجبال . كان بمثابة رسول « الأبهة » إليهم . يكفى أنه شاهد الوزير بنفسه ، وأن الوزير يعرفه معرفة شخصية ويناديه باسمه ، وأن أهل بيت الوزير يعرفونه أيضاً وهو يعرفهم . . معرفة وثيقة .

وتساءل البعض أسئلة بسيطة ، لكنها رفعت من شأن الرجل ومكانته ، منها

على سبيل المثال :

— وهل الوزير يعرف رئيس البعثة ؟ ،

واستبعدوا جميعاً هذا الخاطر .

كانوا ينظرون إلى سائق الوزير باحترام كأنه رحّالة جاء من مملكة أسطورية فى عالم بعيد .. كل ما فيها فخم وعظيم .

إن سائق الأكابر له دلال عليهم وحظوة بينهم أكثر من كبار الموظفين .

إليكم مثالا مع الفارق لكنه يوضح منزلة هذا الرجل فى الحكومة :

— هل يقدر أحد منكم أن يمزح مع رئيس البعثة حتى لو كان من المعيدين أو المهندسين ؟ . إن سائقه يستطيع .. فقد ضاعت الكلفة بينهما على الطرق الطويلة .. فى السفر البعيد .

وجاء يوم فقد سائق الوزير هيبته فى وادى الدباح ، عندما تعرضت خبرته لأول مواجهة حقيقية مع الصحراء .

فقد كانت كفاءة الرجل كسائق للوزير تتمثل فى طباعه المهذبة بالإضافة إلى أنه سائق جيد على كل حال فى الطرق المرصوفة .

لكن قيادة السيارات فى الصحراء تحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وبالذات خلال رحلات الاستكشاف ، حيث تضطر السيارة إلى أن تمشى فى مناطق متباينة مجهولة لم تسبقها إليها من قبل سيارة أخرى . ومطلوب من السائق فى تلك الرحلات أن يلبى أوامر الجيولوجى بصعود التلال والجبال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وألا يتملكه الخوف إن طلب منه أن يهبط بسيارته من على جُرُفٍ عظيم ، أو أن يصعد فى طريق ضيق يكاد أن يضيق بإطارات السيارة .. على كل من جانبيه هوة سحيقة قاتلة .

كذلك مطلوب من سائق الاستكشاف أن يكون « ميكانيكى » من الطراز

الأول ، يستطيع أن يعود بسيارته بأى وسيلة يبتدعها إلى المعسكر الأصلى إذا انتابها أى عطل فى الجبال .

ولقد بقى سائق الوزير فى معسكر وادى الدباح مدة شهر كامل لم يمر خلاله بامتحان صعب يبين مهارته أو جرأته كسائق بمفهوم الصحراء ، فقد كان خلال ذلك الشهر مُكلفاً بتوصيل « وردية » ثابتة المواعيد إلى موقع بعثة « الحفر » فى وادى العطشان ، والطريق إليه شبه ممهد . . كما أنه أصبح مأهولا ومعلوماً لدى الجميع .

* * *

كان علىّ أن أخرج ذات يوم فى إحدى رحلات الاستكشاف إلى منطقة اسمها « وادى أبو جرادى » فى الجنوب ، ترتفع أرضيتها عن مستوى وادى الدباح بحوالى ثمانين ومائة متراً ولذلك فإن الطريق إليها عبارة عن « مطلع » طويل خلال صدْع قديم ممتلئ بحطام الصخور .

وطلبت من ملاحظ السيّارات أن يجهز سيارة على أن يكون معى رجلان من العمال غير السائق .

ووقع اختيار الملاحظ على سائق الوزير .

* * *

وبعد السحور . . أدار السائق سيارته وجلست بجواره ، وقفز فى الصندوق الخلفى « جمعة » العبادى ، ورجل من القليوبية اسمه محمد وشهرته « الفلاّح » ، وقد اشتهر بين رجال البعثة بهذا اللقب . . ليس لأنه الوحيد الذى كان يشتغل بالزراعة قبل التحاقه بالبعثة ، ولكن هكذا كان يلقبه زملاؤه الصعايدة ، لأنه فلاّح من الوجه البحرى .

ولما انتهت السيارة من وادى الدباح كانت قد بذلت جهداً كبيراً فسادت حالها وسخن المحرك .

تركنا الوادى الرئيسى ودخلنا فى معبر صعب يحيط به جبلان ، وتوجد به كتل ضخمة من الصخور يصل حجمها إلى حجم الكوخ أو يزيد ، بعضها بارز على الأرض والبعض الآخر مدفون فى الرمال بدرجات متفاوتة ، كنا نجرى بينها وأحياناً فوقها أو تحتها . . أو نمرق من بينها ، وكانت جذوع من الأشجار المخلوعة . . رمت بها السيول ، تعترض السيارة بين الحين والآخر . كذلك فقد كان هذا المعبر ملتوياً كالثعبان وفيه من الانخفاضات والارتفاعات المفاجئة ما أفقد السائق أعصابه . . والسيارة اتزانها . . فسقطت فجأة من فوق جلمود ضخم وغرست مقدمتها فى تراب أحمر سميك . وأصبحت عجلاتها الخلفية معلقة . . تدور فى الفراغ .

نزلنا من السيارة وبذلنا كل جهد حتى عادت إلى وضعها الطبيعى . وأبديت رغبتى فى الصعود إلى قمة الجبل المتاخم ومعى الرجلان فأبدى السائق رغبته فى الكشف على المحرك إلى أن نعود . ولما عدنا إليه وجدناه جالساً على الأرض فى ظلّ سيارته واجماً . . يضع يده تحت خده ، والسبب أنه أراد أن يصلح السيارة فأفسدها تماماً وأخلف تقسيمة الكهرباء .

* * *

أصبح لا يوجد أمامنا أى حل إلا « المشى »

قررت أن يبقى السائق بجوار السيارة ، ونمشى نحن إلى المعسكر الرئيسى بوادى الدباح فنحضر نجدة لسيارته المعطلة .

كانت الساعة قد جاوزت التاسعة صباحاً بقليل ، واشتدت حرارة الشمس حتى أخذ العرق يتصبب من وجوهنا قبل أن نبدأ مسيرتنا . قلنا إننا لا نريد ماءً كثيراً لأننا صائمون ، وإننى سوف أقودهم بين الجبال مهتدياً بالبوصلة والخريطة فى طريق مباشر لا تستطيع أن تمشى فيه السيارات . صحيح أننا سوف نتسلق خلال مسيرتنا بعض الجبال ولكنه على كل حال طريق أقصر بكثير من طريق السيارات .

ودخلنا فى خور ضيق طويل به غرز شديد . كانت أقدامنا تغوص فيه حتى الركبة ونخلعها بصعوبة وجهد فى كل خطوة . وجاء وقت الظهر فاستبد بنا العطش ولكننا حافظنا على صيامنا وتيممنا ثم صلينا . كان معنا زمزمية صغيرة واحدة مصنوعة من المشمع أخذناها على سبيل الاحتياط وكان الماء يتبخر منها فيفقدها الجزء الكبير ، وقدرنا أنه إذا جاء علينا المغرب ونحن فى الطريق فلن نجد فيها ما نشرب ، لذلك فقد أخفاها واحد من الرجلين تحت جلبابه ليقيها أشعة الشمس المحرقة .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر كنا أمام جبل عظيم علينا أن نتسلقه ونهبط منه إلى الاتجاه الآخر . وكلما ظننا أننا اقتربنا من القمة وجدنا بعدها ثابتاً كأننا نمشى بلا حركة .

ووصلنا إلى جزء من الجبل هو أصعب مرحلة فى الرحلة . فقد كان هذا الجزء مكوناً من « الركام » . . وهو عبارة عن حطام وفتات من الصخور المفككة ، ولكننا تسلقنا بعزيمة ومثابرة وما إن وصلنا إلى منتصف الجبل حتى مادت بنا الأرض وهوى الركام من تحتنا . أخذنا نقاومه بإصرار . . أقدامنا تتسلق بسرعة فى حين يجذبنا الركام نحو السفح . كررنا المحاولة مراراً . . نسوق أقدامنا بإصرار نحو القمة فنجد أنفسنا مسلوبى الإرادة تماماً متجهين بظهورنا إلى أسفل .

بلغ منا التعب مداه ، وأصبحت أقدامنا ترفض المحاولة . ولكن لم يكن أمامنا أى حيلة إلا تجاوز منطقة الركام .

قررنا أن نستريح ثم نحاول من جديد . فخلع الرجلان جلبابهما وعملنا منها مظلة واستلقينا تحتها على ظهورنا .

قال لى محمد الفلاح :

– أريد أن أفضى إليك بسرّ يا أستاذ ، وإنك أول من أبوح له به .

قلت :

– قل ما بدا لك يا محمد

– هل تعرف الدكتور (. . . . .) ؟

– نعم . . وإن مركزه كبير .

– هو من أهل قريتى وقريبى من بعيد ، وسوف يتوسط لى عند المسئولين أن أنقل من هذه الصحراء وأعود للعمل بالهيئة . ولم أتكلم . فسألنى قائلا :

– لماذا لا تبحث لك عن عمل آخر؟ .

ولم أجد جواباً أستطيع أن أقنعه به فى ذلك الوقت الذى وصلنا فيه إلى غاية التعب والعطش ، ربما لأننى من حيث لا أدرى كنت أسأل نفسى السؤال ذاته .

ولكن الفلاح عاود الكلام :

– إننى رجل أمىٌّ ، وأتكلم على قدر ما أفهم . ماذا تصنعون فى هذه البقاع ؟ ولماذا تقضى شبابك بين الجبال ؟ . ألا تعرف رجلا كبيراً يتوسط لك لتنقل إلى القاهرة ؟ . إننى يا أستاذ شخص ضعيف ولكننى مستعد أن أكلم لك قريبى الدكتور ليساعدك .

وقلت إن هذه مهنتى التى لا أعرف سواها ، وإننى هنا باختيارى وماتعلمت فى الجامعة إلا لكى أعمل فى تلك البقاع .

لكن الفلاح لم يقتنع وقال :

– أليست مهنة التاجر خيراً من مهنتكم هذه ؟ . لماذا لا تفتح « دكان مانيفاتورة » فى بلدك وتجلس فيه ؟. لا تؤاخذنى ياأستاذ فأنا أعرف راتبك الشهرى . إن تاجر القماش فى قريتنا يكسب أضعاف راتبك ،كما أن مركزه فى البلد كبير ، لا يقل أبداً عن مركزك فى تلك البعثة ، إن لم يكن يزيد .

ولم أستطع وقتها أن أقنع الفلاح .

قمنا لنواصل تسلق الجبل ، وبعد كفاح طويل وتكرار المحاولة متعاونين وصلنا إلى القمة وبدأنا فى الهبوط إلى الجانب الآخر.

وهبوط الجبال الوعرة أصعب بكثير وأخطر من تسلقها . وأعترف أن منطق الفلاح قوى فى نفسى عدة مرات خلال الهبوط ، وأن سؤاله أخذ يتردد فى أذنى مع كل سقطة أو جرح أصاب به على أثر تشبثى بصخرة واهية . . أو وقوفى على أرضية معلقة . .

– أليست تجارة القماش خيراً من مهنة الجيولوجيا ؟ !

ولا أدرى . . كيف حدث ذلك بهذه السرعة الخاطفة . .

بمجرد أن اختفى قرص الشمس الأحمر وراء الأفق هجم واحد منا على الزمزمية واختطفها منه الاثنان الباقيان بسرعة وهمجية نسينا فيها الحواجز المكتسبة والتحفظ ، ونسينا لحظتها آداب الصيام . ومع هذا وجدناها فارغة تقريباً فقد تبخر الماء كله ، ولم تزدنا الآثار المتبقية التى بللنا بها شفاهنا إلا عطشاً .

وصلنا إلى معسكر البعثة بعد العشاء ونبحت الكلاب ونحن نهبط جبل الدباح وهو آخر جبل تسلقناه ، فهرع إلينا الناس لأنهم عرفوا ما حدث بمجرد سماعهم نباحها .

ووجدت نفسى أتوجه بلا وعى إلى خيمتى . لم أشعر بجوع أو تعب ، كل ماكنت أشعر به . . عطش مميت طغى على أى شعور آخر . وكان بداخل الخيمة « باستيلة » من الماء الممتلئ بالديدان الصغيرة ، جئنا به من بئر عطنة فى الصحراء بغرض الاغتسال لكى نوفر الماء النقى الذى نحضره من مكثف القصير أو من نهر النيل . لم أصبر حتى أصل إلى مكان الماء النظيف بل وجدت نفسى بدون تحكم أعب من الماء العَطِن . . وكلما شربت ازددت عطشاً . ونمت فى غيبوبة أسلمتنى إلى المرض .

وتعلمت من هذه التجربة أنه إذا ازداد العطش بالرجل فى الصحراء فإنه قد يصل إلى درجة يطلقون عليها « درجة الاحتراق » إذا تجاوزها يكون شرب الماء أخطر عليه من العطش ، فقد يمرض مرضاً شديداً إذا شرب بطريقة مفاجئة وبكمية كبيرة ، وربما يموت من الشرب بدلا من أن يموت من العطش . ومن الحكمة أن يُعْطَى قليلا جدًّا من الماء . . وتزداد الكمية على فترات ، ويمنع عن تناوله بنفسه حتى ولو بالقوة . وقال لى بعد ذلك رجال من أصحاب الخبرة إنه فى هذه المرحلة تكون أحشاؤه محترقة ، وسألنى أحدهم ليقرب لى المعنى .

ماذا يحدث لو أن سيارة ما . . سخنت إلى درجة الاحتراق ثم صب عليها الماء البارد فجأة . . ألا يتصدع محركها ؟

وعلمت بعد ذلك أن الرجال تركونا نائمين واقتفوا أثر سيارتنا إلى أن وصلوا إلى سائق الوزير وسحبوا سيارته إلى المعسكر .

وقد تعرض السائق للنقد اللاذع والسخرية وازدادت مع الأيام . وأصبحت قصته تسلية لهم جميعاً . . فى فراغ الصحراء . وحاولت أن أوضح لهم الظروف الصعبة التى مررنا بها فى الطريق ، وأن الرجل قد أخلف تقسيمة الكهرباء بحسن نية ، ولكن هذا لم يزدهم إلا هجوماً عليه وازدراء له . ولم يشفع له حسن خُلُقه أو حسن نيته ، لأن الصحراء القاسية لها منطق لا يحترم إلا القوة . . ومن أهم مقومات القوة « الكفاءة » . وكما أن القانون فى المجتمع المتحضر لا يرحم من يجهله ، فإن قانون الصحراء . . لا يحترم إلا الأكْفاء .

وظلّ الناس يهاجمون الرجل الطيب . . إلى أن ترك لهم وادى الدباح . . وعاد إلى القاهرة ، ليقود من جديد . . سيارة الوزير .

الحكيم والذئب

الذئب شخصية محترمة . . فيه من الشجاعة ومن صفات الرجولة ما يجعلك تحترمه مهما كان عناده ساعة المعركة . والإنسان فى عراكه مع الذئب ليس من الضرورى أن يكون فى جانب الحق دائماً . قد يكون الإنسان ذئباً أكثر من الذئب ذاته .

حدثت المعركة بين رجال فى جانب الباطل . . وذئب عظيم فى جانب الشرف والدفاع عن نفسه وعن زوجه وبيته . بدون سبب هاجمه الإنسان . فوجىء به ركاب العربة « اللاندروفر » أمامهم ومعه زوجه الذئبة . . يتنزهان فى هدوء وسلام . .

المنطقة فسيحة جدًّا . . من سوء حظ الزوجين . والسيارة « اللاندروفر » أكثر العربات كفاءة فى الصحراء ، ويقال إنها صممت خصيصاً للصحراء المصرية ،

و « الحكيم » سائقها . . معتز بمهارته ، وهو من أكفأ السائقين فى عمليات الاستكشاف والاستطلاع ، إذا طلبت منه أن يصعد فوق الجبل بالعربة لصعد . . وإن طلبت أن يهبط بها كالطائرة من فوق حافة قاتلة لهبط بها ، فماذا تظن أنه فاعل بذئب وذئبة وجدهما أمامه ؟

استأذن الحكيم . . « مصطفى السيد » . . الجيولوجى الذى يجلس بجواره فى أن يهاجم الذئبين . . فسمح له . وما إن سمع الإذن حتى اندفعت السيارة بسرعة رهيبة فى اتجاهها ، وفرق الحبيبان من هول المفاجأة وتفرقت بهما السبل . اتخذ الذكر حافة التل الغربى واتخذت الأنثى حافة التل الشرقى . شعر الحكيم بنشوة النصر . . لقد استطاع أن يفرق بين الذئب وزوجه . انحرف الحكيم نحو الغرب وصعد حافة التل بالعربة وجرى فوقه فى أعقاب الذئب ليرده إلى الأرض الفسيحة . . احتكت العربة بجدار التل فأحدثت دويًّا استشاط له كلٌّ من الحكيم والذئب غضباً . . أخذت العربة تقفز من فوق الصخور . الذئب ذكىّ . . يعرف أن الحكيم يريد أن يبعده عن التل ويخرجه إلى الخلاء . . أخذ يدور حول التل على حافته والعربة من خلفه تقفز بجنون وتتأرجح .

مصطفى . . يأمر الحكيم بالتراجع . . لم يكن يعرف أن المعركة ستكون بتلك الشراسة ، . الحكيم يظن أنه يستهين به وأنه يقول له ما معناه أنك سائق خائب والذئب أمهر منك . يستشيط الحكيم عزماً ونزقاً يضغط على البنزين إلى أقصاه . . العربة تهتز وتمرق بهمجية بالسرعة القصوى فوق الصخور الوعرة .

الذئب يعرف أنها معركة الموت أو الحياة . . ينظر إلى أنثاه التى ترقب المعركة من فوق التل الآخر بإشفاق وهلع . . الذئب يقفز بكل ثقله وضخامته من قمة التل إلى ظهر العربة . « حسين » موجود فى الخلف وليس فى الكابينة . . يشعر بثقل الجسم الذى هبط فوق سقف العربة القماش . . أمن المعقول أنه الذئب ؟ غير معقول . .

ولكن من يكون سواه . الحمد لله . . الذئب لا يريد « حسين » . . بل يعرف غريمه . . يتشبث الذئب بكل مخالبه فى سقف السيارة القماش ويضع وجهه فى وجه الحكيم ويهم بالتهامه . . يصطدم وجهه بالزجاج .

سقط الذئب أو ربما قفز من فوق السيارة ونظر إلى الوادى الفسيح فوجد زوجه قد تركت التل الشرقى التى كانت تحتمى به واقتربت من ميدان المعركة لشدة قلقها على زوجها البطل . شعر الذئب أن وجودها فى هذا السهل المنبسط خطر عليها . فاندفع نحوها بسرعة فائقة واندفع الحكيم بسيارته الرعناء ليقطع عليه الطريق إلى أنثاه . إنها فرصة الحكيم أن يصرعه فى الوادى الفسيح . الذئب فى منتهى الذكاء . . لم يجر أمامه فى خطٍّ مستقيم . . إنه يجرى فى دائرة كبيرة ، والحكيم يدور خلفه على نفس محيط الدائرة . . الذئب ماكر فهو يضيق محيط الدائرة . . ويضيق . . إلى الحد الذى كادت أن تنقلب السيارة على جنبها . . ولو انقلبت فى تلك اللحظة لتغير وجه المعركة . . وتغير مصير أسرة آمنة من الذئاب .

العربة تجرى بالفعل على جانب واحد . « مصطفى » يفيق من نشوة المطاردة فيأمر الحكيم بحزم أن يترك ذلك الذئب اللعين . الحكيم يؤثر عليه فشله مع الذئب بالإضافة إلى حزم مصطفى معه هذه المرة ، فيستدير إلى الأنثى . حسن جدًّا ، إن كفاءتها أقل بكثير من ذلك الشيطان . يحول المطاردة إليها . . نعم إنها تبشر بالخير . الذئبة مضطربة . . لا تجيد التصرف . . لياقتها منخفضة . . يظهر أنها ليست ندًّا مكافئاً للاندروفر . حركاتها ثقيلة . الحكيم يضحك مقهقهاً كالشيطان ، يمزح ساخراً منها : إنها تذكرنى بامرأة حامل . . إنها تنهج . . بل إنها تبكى . الذئب الذكر يأبى أن يترك ميدان المعركة ويهرب كالجبناء . . بالرغم من أن الفرصة الآن مواتية له للهروب . فاجأ السيارة بقفزة هائلة صفع فيها مقدمة السيارة بجراءة ليس لها مثيل . . مدافعاً عن أنثاه . . لكى تتحول المعركة عنها إليه . الحكيم يتحول عن

الذئبة ليطارده . . وهذا ما يريده الذئب بالضبط . ولكن الحكيم . . أخبث من الذئب . . لم يستمر فى مطاردته بل استدار فجأة إلى الذئبة فصرعها .

وتأوهت الأنثى . .

وبكى الذئب فوق التل وهو يرى المنظر الأليم . . بكاء الرجل المقهور . . الذى فقد كل شىء . . كلى شىء . . وانصرف يجرى فى القفار الفسيحة . . يعوى . . كالضال أو الشريد .

* * *

عاد الرجال الأشرار إلى معسكر رئاسة البعثة الجيولوجية ، وأخبرونى بالقصة . . وأخذت أتأمل الذئبة المسكينة التى أحضروها معهم . . قبل أن أعاتبهم على جنونهم وسوء استعمالهم للسيارة . الذئبة ضخمة الجسم بشكل كبير . . ووجهها قوى ، وهى عموماً أكبر جسماً وأشد متانة من تلك الذئاب التى نراها فى حدائق الحيوان أو المزارع ، وتبين لى أن الذئبة حامل بالفعل . . وعلى وشك أن تضع صغاراً من الذئاب .

* * *

ذات يوم وأنا فى طريقى إلى وادى التمساح عرجت على مكان المعركة . ووجدت آثار الصراع بين الحكيم والذئب مرسومة فى الوادى الفسيح ، ومعنى هذا أنه لم تحدث عاصفة خلال الأسبوع الماضى فى هذا المكان تطمس الآثار . وتعجبت من الضيق والتغير السريع لمحيط الدائرة التى جر الذئب الحكيم وراءه خلالها . . هادفاً إلى انقلاب السيارة . . وتبينت أن عدم انقلابها كان فى حد ذاته معجزة . وكانت آثار عجلات السيارة خلال المطاردة واضحة . . تتقاطع فى منحنيات شديدة . وعلى أساس القاعدة المعروفة فى فن اقتفاء الأثر التى تقول بأن القاطع أحدث من المقطوع . . أخذت أقرأ قصة المعركة على أرض الوادى الفسيح .

ورأيت الموضع الذى صرعت فيه الذئبة . . ولم يزل موضع جسمها واضحاً كالقالب فى بطن الوادى . واستنتجت من اقتفاء الأثر أن الحكيم مرَّ عليها عدة مرات حتى يتأكد من موتها تماماً ، قبل أن ينزل ليرفعها إلى سيارته .

ووجدت عن قرب ، بيت الذئاب الذى خربة الحكيم . وهو عبارة عن كهف مظلم طويل . ودخلت فى الكهف إلى نهايته . . فوجدت مجموعة من العظام أخرجناها كلها إلى خارج الكهف . . وأخذ الرجال يسلون أنفسهم بتركيب بعضها على بعض لكى يعرفوا نوع الضحايا التى افترستها الذئاب . . إلى أن يفرغ عبد العال من عمل الشاى . وقد ألفوا هياكل عظمية كاملة أغلبها كانت للغزال . ومن بينها هيكل لجمل كبير افترسه الذئب .

وأخذنا نشرب الشاى ونحن نتحادث تحت شمس الخريف الدافئة . . على حين ينظر بعض الرجال إلى هياكل الضحايا التى افترستها الذئاب . . ويترحمون على تلك الضحايا . وغيرهم يتكلمون عن شجاعة الذئب المقهور واستبساله . . ويترحمون على الذئبة . . ضحية الحكيم .

* * *

سيول . . فى وادى الدباح

كان ذلك فى يوم من أيام فصل الشتاء . .

معسكر صغير يقبع فى سكون . . على سفح أحد الجبال ، وخيام بيضاء تنتشر على أرضية من صخور الاردواز ، وكأنها طيور صغيرة تحط على تربة زراعية سوداء . وتلال بنفسجية اللون تحيط بالمعسكر . كأنها سياج من الورد حول زهرة بيضاء . وقوس قزح بألوانه الزاهية يرتفع فى الأفق . . كأنه مارد يحرس هذا المعسكر . . أو وصى على تلك الجبال ، وبدا المعسكر فى ذلك الوقت كأنه خال من السكان ، أو كأنه مهجور أو مسحور ، فقد هبت مع الأصيل نسمات باردة . . جعلت الرجال يأوون إلى خيامهم . . ويجلسون حول وابور الشاى فى حلقة للسمر . . والراحة من عناء يوم ساخن فى الجبال .

وقافلة صغيرة . . تسير فى وادى الدباح مكونة من أربعة جمال وثلاثة حمير . .

وبعض الماعز والكلاب ، وبها ثلاث نساء وعدد من الأولاد ، يقودها رجل واحد جاوز التسعين من عمره جاف العود . . ولكنه ممتلئ بالحيوية والنشاط . . هى أسرة عادية من أسر العبابدة ألف « الغرباء » أن يشاهدوا مثيلاتها تمر بهم فى أثناء الرعى والترحال .

ويظهر أن هذا الشيخ كان على عجلة من أمره فقد كان ينخس الحمير . . ويحث العير على سرعة المسير ويتمتم بين الفينة والأخرى بدعاء غير مسموع . ويبدو أيضاً أن القافلة كانت تقصد معسكرنا الصغير .

وأوى الرجل وأسرته إلى تل وردى اللون . . قريباً من المعسكر ، وأناخ الجمال . . وترك للنساء بقية العمل المعتاد مثل إطعام الخراف وتقديم بعض الماء لها ، وأمرهن أن ينصبن « خيشة » . . لكى يجلسن فيها ريثما يعود ، واتجه من فوره على ظهر أحد الحمير إلى معسكر البعثة .

* * *

وعندما سمع الرجال وقع حوافر الحمار . . نظر أحدهم من فرجة ضيقة ، ورأى الشيخ فخرج ليستقبله ويسأله عن حاجته التى تكون فى العادة قربة من الماء أو بعض الدواء .

وحياه الشيخ بتحية الإسلام ، وقال إنه لا يريد شيئاً من ذلك ، فدعاه الرجل لشرب قدح من الشاى . . فاعتذر شاكراً ، فعرض عليه أن يدله على خيام العبابدة من العمال ، فلربما جاء يبلغهم رسائل الأهل والأحباب ، فرد الشيخ قائلا :

– ما جئت اليوم . . لرؤية أولادنا من العبابدة ، ولكن لمقابلة شيخكم . . كبير الغرباء .

فتعجب الرجل وقال للشيخ :

– هل هى شكوى ؟ . . وإن كانت كذلك ، فلماذا لا تشرب الشاى أولا ،

وتسلم على أهل المعسكر ثم تذهب إلى الرئيس بشكواك كما هى العادة ؟
فأجاب الشيخ :
– إنها ليست شكوى يا بنى ، وأرجو ألا تضيع وقتى هباء .
فقاده إلى خيمة المكتب وكانت مغلقة . . وبداخلها الجيولوجى الشاب ينحنى واقفاً أمام منضدة كبيرة للرسم . . وقد بسط عليها خريطة يوقع عليها البيانات التى حصل عليها فى يومه ، ولا يوجد فى الخيمة شىء آخر غير « كلوب » دق فى عمود الخيمة . . للتدفئة وتعويض المفقود من ضوء النهار . . بسبب انغلاق الخيمة .
وفك الشاب حبال الباب ، ودعاهم للدخول ، وإذا الشيخ يقول مباشرة بعد السلام :
– أيها الرئيس . . لقد رأيت الفأر يحمل صغاره ، وينقلها إلى أعلى الجبل ، واحداً بعد الآخر .
فلم يفهم الجيولوجى الشاب مقصده . . وظن أنه أخطأ فهم المقال ، وأن عدم اعتياده لهجة العبابدة . . هو الذى صور له ذلك ، فأهمل ما سمع . . وسأل الشيخ أن يجلس ليشرب بعض الشاى ، ولكن الشيخ لم يفعل وأعاد عليه القول :
– لا وقت لدينا اليوم للشاى أو الراحة ، وليشملنا الله بعنايته ، أقول لك إننى رأيت الفأر ينقل صغاره إلى أعلى الجبل .
وكان بعض العمال من العبابدة قد وصلوا من خيامهم . . إلى خيمة المكتب ، ووقفوا – تأدباً – على بعد خطوات من باب الخيمة ، فقد أدركوا أنّ هناك أمراً هامًّا . . دعا الشيخ إلى أن يتوجه مباشرة إلى رئيس البعثة بدون أن يمر على خيامهم . . ويشرب قهوته . وما إن سمعوا كلام الشيخ حتى دخلوا الخيمة بدون دعوة ، فنظر إليهم الجيولوجى الشاب ليفهم منهم ماذا يقصد الشيخ .
فقال له أحدهم :

– والله إنى توقعت أن يكون المطر قد هطل على منطقة المرتفعات . . جنوب وادى الدباح ، ولم يذهب بى الظن إلى اكثر من ذلك .

وعقب عبادى آخر قائلا :

– ولقد رأيت « القزع » فى السماء . . وهو سحاب صغيرة يتطاير فى الجو كأنه خيوط العنكبوت ، فعلمت أنه المطر . . يهطل فى الجنوب ، ولكنّ أحداً منا أيها الرئيس لا يستطيع أن يخبرنا بهذا الأمر الجلل الذى من أجله جاء الشيخ . . إلا الفأر ، وحمداً لله أن رآه يصعد بصغاره إلى قمة الجبل ، قبل فوات الأوان .

وقال الرئيس :

– أريد كلاماً واضحاً أيها الناس .

فرد رجل من العبابدة :

– إن الشيخ يقصد أن السَّيْلَ آتٍ لا ريب فيه ، وقد يدمر المعسكر ومافيه .

وقال الشيخ :

– أرى أيها الرئيس – والرأى لك – أن تأمر رجالك بأن يحملوا ما يستطيعون حمله من متاع ، ويخلعوا المعسكر ، ثم يأوون إلى جبل يعصمهم من الماء .

فابتسم الرئيس ، وشكر الشيخ ، ودعاه مرة ثانية إلى شرب الشاى . وكان ذلك علامة على أنه لم يعر الأمر الاهتمام المطلوب .

وانصرف الجيولوجى الشاب إلى خريطته يوقع عليها البيانات ، التى حصل عليها خلال رحلاته بين الجبال ، وكأنما لا يرى فى الحياة ما يستحق الاهتمام . إلاّ خريطته هذه التى انقطع لها عن العالم المعمور أكثر من عام .

* * *

ومن صفات العبابدة أنهم إذا حذَّروا من شىء . . فإنهم لا يكررون التحذير ، ولا يلحّون فى طلب الاحتراس منه . لذلك فقد انصرفوا إلى خيامهم ، وعاد الشيخ

إلى أسرته وراء التلال بدون أن يشرب الشاى .

ولقد لاحظت هذه الخصلة فيهم خلال مناسبات شتى أيام معيشتى فى تلك البقاع ، لأنهم على الرغم من ثقتهم فى تأويل ما يشاهدون من ظواهر الطبيعة ، فإن أخلاقهم الطيبة تصونهم من أن يغرهم بخبرتهم الغرور . وربما يرجع ذلك أيضاً إلى ثقتهم فى العلم الحديث ، يقولون إنّ فَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيم ، وقد يقيهم الرئيس بعلمه شرّ السيول ، خاصة أنه ثبت لديهم فى مناسبات شتّى أنّ الغرباء يدركون أشياء كثيرة عن بلاد العبابدة . . تثير الدهشة والعجب ، فهم مثلا بمسالك البلاد خبراء لدرجة تصل إلى حدّ الإعجاز ، على الرغم من أن كثيرا منهم لم يسبق لهم المجىء إليها .

ينظر الغريب إلى ورقة فى يده اسمها الخريطة ويحرك جهازاً صغيراً اسمه البوصلة ثم يوجه السيارة بثقة إلى أى مكان يشاء ويعود فى نهاية اليوم أو بعد أيام من السفر إلى المعسكر من درب آخر غير الذى ذهب به ، بل إنهم لاحظوا أنّ الغرباء يعرفون جبالا . . لم يذهب إليها شباب العبابدة من قبل . . إنما يسمعون عنها فقط من آبائهم الأولين . ولقد رأى العبابدة حتى النساء منهم والأطفال كيف أن سيارة الغرباء وهى من عجائب العلم الحديث تقطع فى ساعات ما لا يقطع الجمل فى أيام . .

وقد بلغت ثقتهم بالغرباء غايتها يوم أن هبط عليهم من السماء « طائر الحديد » . نزل فى ساعةِ هوْل لم يسبق لهم أن مرُّوا بمثلها من قبل ، كان أزيزه يهز الأرض وما عليها ، وتُردِّدُ الجبالُ صداهُ ، فكأنّ عشرات منه هبطت فى نوبة واحدة فوق الجبال . وبعد أن استقر على الأرض كان له هيبة أكثر من طائر الرُّخّ الذى يسمعون عنه فى الأساطير ، تضاءلت أمامه سيارة النقل الكبيرة حتى إنها لم تصل فى علوّها إلى ارتفاع بوزه الأحمر المخيف . وهبط منه رجل يخفى عينيه خلف

قطعتين من الزّجاجِ الأسود ، ويرفقته شاب اسمه قدرى فؤاد . . زميل الغرباء ، يقولون إنه أيضاً يبحث عن نفس المعدن الذى عنه يبحثون ولكن من السماء . . وبجهاز مثبت فى بطن ذلك الطائر الجبار ، ولولا أن العبابدة شاهدوا « قدرى » مراراً مع الغرباء لظنوا أنّ الرجلين قد جاءا من كوكب آخر فى مجاهل الفضاء . وبعد أن تناول الرجلان « اللذان هبطا من السماء » طعاماً مع زميلها رئيس الغرباء . . ضحكوا ولعبوا النّرد وشربوا القهوة . . ثم ركبا طائرهم الجبار . . وطار بهما مزمجراً فوق قمم الجبال ، وأثار وراءه نقعاً صعد إلى عنان السماء .

* * *

وإذا كنت أجد تفسيرا لعدم إلحاح العبابدة على رئيس الغرباء ، واحترامهم لقراره سواء أكان بالسلب أم الإيجاب ، فإننى لا أجد حتى الآن تفسيراً معقولا لتقاعس ذلك الشاب ، ولا أعرف لماذا لم ينقل معسكره فوراً بعد ما سمع من نذير هل هو ما يسميه بعض الجيولوجيين بالاستغراق . . الذى ينجم عن ارتباط الإبداع بالمكان ؟ . وهل وصل ذلك الاستغراق بالشاب إلى أن يفقده الإحساس بالخطر ، وينسى كل شىء عندما يتأمل فى خريطته ما اكتشف بنفسه من تراكيب جيولوجية نادرة . . ربما يكون لها شأن فى تغيير المفهوم العلمى لتلك المنطقة ! ، وإن اسمه – على صغر سنه – سوف يسجل فى الجمعية الجيولوجية المصرية ، وربما فى المؤتمرات الدولية ، وقد يتردد أيضاً فى مدرجات الجامعة فى مادة (جيولوجية مصر) ؟ ، . لا أظن أن تلك الآمال تبعده عن واقع ما سمع . . بل ربما تزيده حرصاً على حياته . . وعلى خريطته . فأى تفسير إذن لتصرف الشاب ؟

لعله لا يعرف حقيقة السيل ؟ ، حقًّا هو يسمع عنه فى الكتب ومن الناس ، ولكنه لم يجرّبه . . ولا يعرف أنه يمكن أن يباغته فلا يستطيع لنفسه شيئاً . أو أنه كبر عليه بعدما بلغ من علم أن يقوده فأر صغير ؟ ، وعظم أمامه أن توضع قرارات

الإنسان بناء على تصرفات الجرذان ؟ .

وبعد صلاة العشاء ربط حبال الخيمة من الداخل ليغلق بابها . . ثم قرأ جزءاً من المصحف الشريف كعادته كل ليلة وأوى إلى سريره لينام . . على أمل أن يصحو مبكراً ليستأنف عمله فى الجبال ، وقد نسى ما حدث بخصوص الشيخ العبادى وحكاية الفأر .

ولكن كلبه الذى اعتاد أن ينام تحت السرير . . خرج من مضجعه وأخذ يرهف السمع ثم جذب صاحبه بفمه . . واندفع إلى باب الخيمة يعالج الحبال يريد أن يفتحها . . ففشل فى ذلك ، فرجع إليه ينبح نباحاً غريباً . . ولكنه لم يعره اهتماماً ، وارتفع نباح الكلب وفشل الشاب فى إسكاته ، فقام وفتح له باب الخيمة فاندفع إلى خارجها . . ثم ما لبث أن عاد . . يحملق فى صاحبه ويكرر النباح الغريب . . وضاق به صاحبه فنهره . . ولكنه لم يرتدع ، وظن الشاب أن الكلب قد أَلَمَّ به الجنون ، فنادى على الخفير وطلب منه أن يأخذه بعيداً ولكن الكلب قاوم الخفير وواصل النباح كأنه يحذر من شيء مجهول .

فقال الشاب للخفير :

– لا أريد أن أسمع صوتاً لهذا الكلب المجنون ، أقبض عليه ، وكممه حتى الصباح فنرى بعد ذلك ما أصابه ، وإن كان قد أصيب بالسُّعارِ . . فلابد من قتْله .

ودافع الكلب عن حريته بإصرار ولكن الخفير استطاع فى النهاية أن يقبض عليه وأخذه بعيداً فى أقصى المعسكر ، والكلب لا يكفّ عن النباح الغريب .

وأوى الشاب إلى مضجعه ثم أطفأ « الكلوب » ولكنه لم يتمكن من النوم ، فقد بدأت الهواجس تحوم بخياله .

إن الكلب ليس بمجنون أو مسعور بدليل أنه لم يعض الخفير عندما ضربه .

يقولون إن الله ألهم الحيوانات إدراكاً للكوارث قبل وقوعها ، فهل سمع الكلب صوتاً بعيداً فى الوادى . . تعجز أذن الإنسان عن التقاطه . . فى حين تلتقط موجاته آذان الكلاب ؟ .

إنّ نظرات الكلب كان فيها ما يشبه التحذير ، وكانت تنتقل فى رجاء بين الشاب واتجاه الجنوب ؟ وهو الاتجاه الذى يتحتم على الماء أن يندفع منه إذا جاء السيل ، بناء على خريطة المناسيب . وأغمض عينيه يريد أن يبعد عن نفسه الظنون ، وعبثاً حاول أن ينام ، ظلّ يحادث نفسه كأنّ فى جوفه رجُلين لهما رأيان متناقضان ، أحدهما يسفه فكرة خلع المعسكر ويرى تأجيل ذلك على الأقل حتى الصباح ، والآخر يحذر من التقاعس . . ويحث على سرعة اتخاذ القرار . واحتدم النقاش الصامت وأصبح جدلا وأخذ الشاب يكلم نفسه بصويت مسموع :

– إن معسكرى فى مأمن من خطر ما يسمى بالهيار ، وهو فيضان من الصخور ، تكون معلقة على جوانب الجبال ويعوقها عن الانهيار عائق ضعيف ، فإذا ما نحوت السيول من تحتها فإنها تتحرك ، ثم تتزايد سرعتها وقدراتها . . وإذا ما دهمت أى معسكر . . جعلته كعصف مأكول .

ويجيب على نفسه قائلا :

– ولكن المعسكر يقع فى فم وادى الدباح . . والوادى طويل ومستقيم وينحدر نحو المعسكر . . وتغذيه روافد كثيرة على جانبيه ، بالماء . . وفتات الصخور ، وكذلك بالحصى والرمال ، وكلها تكسب الماء فى سرعتها قدرة إضافية على التدمير .

– ولو باغتنى السيل سأخطف الخريطة وأجرى نحو الجبل ، إنها أثمن شيء فى المعسكر كله . . فهى إنتاج البعثة كلها خلال سنة كاملة .

– والكتب هل هانت عليك ؟ إن منها مراجع أجنبية حصلت عليها بشق

الأنفس ، ومنها ما لا يمكن الحصول عليه مرة أخرى ، وحتى لو أمكن ذلك . . هل يهون عليك ملاحظاتك فى هوامشها ؟ وكتب العقاد وطه حسين ونجيب محفوظ وأنيس منصور ، صحيح أنك تستطيع أن تحصل عليها مرة ثانية عندما تعود . ولكن النسخ ذاتها لا تهون ، لازمتك فى السراء والضراء ولم يكن لك من صديق غيرها . . فى مجاهل الصحراء ، وربطت الوحدة بين صفحاتها وأفكارك . . برباط متين .

-- تبًّا لهذه الهواجس . هل أستسلم لها حتى الصباح ؟

وتقلب على الجانب الآخر وأغمض عينيه وقد عزم على النوم . وهنا سمع خشخشة بسيطة خارج الخيمة . . ولكنها كانت كافية لكى يقفز بلا شعور من السرير . إذن فإن أعصابه مرهقة . تُرى هل هو ثعلب صغير أو أرنب مسكين . . شعر بقدوم السيل ، فألهمه الله أن يجرى أيضاً فى اتجاه الشمال ؟

وأخذ فى يده الفانوس ، وفك حبال الخيمة ونادى على الخفير .

وبادره الخفير بقوله :

— إننى كممت الكلب وقيدته ، ولكننى لم أستطع أن أجبره على السكوت . إنه كلب عنيد لا يكف عن الحركة ومحاولة الإفلات . وقد أثار الكلاب الأخرى بعناده .

فقال الشاب :

— ابعث إلىَّ بالعمال العبابدة فوراً .

وعاد إليه الخفير مهرولا . . وقد ظهرت علامات الخوف على وجهه وقال :

— لم أجد منهم أحداً ، فقد حملوا متاعهم ورحلوا ، بل إن بعضاً من الصعايدة والبحاروة تبعوهم إلى الجبال .

وكان الشاب فى تلك اللحظة قد عزم وقرر ، أن يأمر رجاله بأن يحملوا متاعهم

ويخرجوا إلى الجبال المتاخمة . وأخذ يفكر باضطراب ، ماذا يأخذ وماذا يترك . وقطع عليه حبل التفكير صوت ضعيف ، ولكنه شامل مثل الحفيف ، ونظر فرأى فى نور الهلال الخافت أكواماً من القش وشجيرات الشوك . . تغزو المعسكر . . فعرف أنها مقدمة السيول . فصاح بأعلى صوته على رجاله أن يخرجوا إلى الجبال ، ولكن صوته ضاع فى خضم صوت . . يزمجر من بعيد ، وإذا بفيضان من الرّيم الأبيض يلمع تحت أشعة القمر . . كأنه البحر يجور على المعسكر والناس نيام ، وإذا بهم يفيقون من سباتهم ويخرجون من الخيام . . كالجرذان تخرج من الجحور ، يصيحون : السيول . . السيول .

وهرول الشاب إلى خيمته ، ولكنّ بعضاً من الرجال اعترضوه ، فنهرهم بحزم . . ودخل خيمته غصباً وقد حاصرها الماء ، وانتزع خريطته من فوق المنضدة وطواها وجرى بها نحو الجبال .

وقضى الرجال ليلتهم فوق الجبل ساهرين ، يتأملون فى نور القمرمعسكرهم الصغير وهو ينهار بالتدريج ، شاخصة أبصارهم إلى ما يسبح من حاجاتهم . . وما تعوقه الصخور . وعندما اشتد البرد . . اقتسم كلٌّ من الذين هجروا المعسكر مبكرين « البطانية » مع زميل له من الذين ولّوا متأخرين . كان صمت الليل طويلا . . ومضى كله بدون أن ينبس أحد منهم بكلمة .

* * *

وأشرق الوادى بنور النهار ونظر مراد أفندى فوجد أنّ الخيام كلها سقطت ، ولكنها لم تتحرك كثيراً عن أماكنها الأصلية ، ومنها ما شبكت بأوتادها فى الصخور المبعثرة بالوادى فعاقتها عن الحركة . وأثلج صدره عندما رأى الأكشاك ثابته فى مكانها لم تصب بسوء ، وأن الأرض لم تعد مغطاة إلا برغاوى بيضاء . . وماء ضحل لا يصح أن يمنعه عن النزول لتفقد حاجاته والبحث عن نقوده .

فقال :

– فيلحضر إليّ هنا على الفور ثلاثة من العمال ، يساعدونى فى البحث عن حاجاتى بين الصخور .

فنهاه الجميع وأرادوا أن يشرحوا له خطورة النزول إلى الوادى فى ذلك الوقت بالذات ، ولكنه قاطعهم قائلا :

– إن « دولابى » الموجود فى كشك المخزن به فواتير السلفة واستمارات العهدة وإيصالات « الكهنة » وبه محاضر اللجان وصور الارتجاع ، فاذا أتلفها الماء . . من منكم يكون المسئول ؟

وعادوا يحاولون إقناعه بأن هذه مرحلة من مراحل السيل . . لا يجوز النزول فيها فقاطعهم مرة ثانية وقال بعناد :

– إنى أعلم من اللوائح والقوانين . . ما لا تعلمون .

وألقى بالبطانية التى كان يتدثر بها على الأرض وهب واقفاً ، ولكنهم تجمعوا حوله وأمسكوا به ومنعوه من النزول ، فجلس على مضض ، وهو يشعر بالسخط عليهم جميعاً . وتتابعت الأحداث بعد ذلك فحولت سخطه عليهم إلى شعور بالرِّضا والامتنان . فقد تعلّم أن السيل قد يحدث على دفعتين ، الأولى يسميها البعض بالطلق الصغير ، وهو ما حدث فى اللية السابقة ، وأنهم فى انتظار الطلق الكبير ، الذى قد يباغتهم فى أى لحظة مهما طال الانتظار .

كذلك عرف يومها أن البحث بين الصخور عن حاجاتهم المفقودة فى الفترة ما بين الدفعتين أمر محفوف بالخطر ، بسبب وجود الحشرات والثعابين الجريحة التى أقلقها السيل من رقادها الشتوى الطويل . . وحطم جحورها . . وقذف بها وبصغارها بين الصخور ، وعادة ما تعوقها الجلاميد الكبيرة الموجودة فى الوادى كما تعوق حاجات المعسكر ، وهم يعتقدون أن الثعابين والأفاعى الجريحة أشد فتكاً

بالإنسان لو عبث بها مما لو كانت سليمة . كما تعلّم أن من أخطر ما يهدد حياته وهو يبحث عن حاجاته المفرقعات التى كانت محفوظة فى معسكر البعثة واجتاحها السيل . . وقد تنفجر فيه علبة كاملة من الكبسول فتمزق لحمه وتفتت عظامه وتقذف بها فى أماكن متفرقة ، كما فعلت بزميل لهم من قبل .

* * *

وأقاموا صلاة الظهر فوق الجبل ، وماكادوا ينتهون من دعواتهم التى تعقب الصلاة ، حتى وجدوا الماء يندفع من الروافد فى وقت واحد . . وغطى الوادى وأغرقه كله وارتفع فيه حتى صاح أحدهم :

— إنه ليس سَيْلا . . بل هو طوفان نوح .

وفى هذه المرة دمر الأكشاك وطهر الوادى تماماً من كل شيء لهم ، حتى الصندوق الحديدى الكبير الذى كانوا قد خلعوه من سيارة النقل وطرحوه أرضاً رأوه عائماً كأنه مركب ، وطفا خزان المياه الحديدى الكبير أيضاً بما فيه من ماء وغاب عن أنظارهم ، وانقلبت سيارة النقل على جانبها بعد أن خوى الماء الأرض من تحتها .

وبعد أن انتهى السيل ، انقسموا إلى جماعتين : الأولى عزمت على السير فى اتجاه مدينة القصير لإبلاغ المسئولين وطلب القوت الضرورى ، بعد أن تلفت السيارة الوحيدة التى كانت معهم . وجماعة أخرى كان عليها أن تبحث عن أشتات المعسكر المفقود ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه على بعد مسافة طويلة فى اتجاه الشمال . وتحصى الخسائر . . وتكتب المحضر اللازم فى مثل هذه الأمور .

* * *

حدث ذلك منذ خمسة عشر عاماً أو يزيد . وأما أولئك القوم الذين ألفت بين قلوبهم السيول ، فقد فرقت بينهم الأيام والخطوب ، فمنهم من التحق ببعثة

جيولوجية أخرى تعمل فى مكان آخر من مجاهل الصحراء ، ومنهم من هاجر أو سافر للعمل فى إحدى الدول العربية الشقيقة ، ومنهم من أبعدته السن القانونية أو أقعدته الشيخوخة فانتقل ليعيش فى قريته يفلح الأرض أو ليفتح دكاناً صغيراً فيها ، وغيرهم انقطعت عنى أخبارهم فلا أعرف عن أحوالهم شيئاً .

وأما الجيولوجى الشاب ، فقد أصبح الآن أستاذاً فى إحدى الجامعات المصرية وقد اشتهر فى الجامعة بأنه أستاذ كثير الشغب ، وله جولات لا تنتهى ضد الروتين ، وكل مشاكله مع إدارة الجامعة تنبع من أصل واحد . وهو أنه يؤمن بأن الجيولوجى الحق . . لا يتخرج إلا فى الصحراء وأن الخير كل الخير لتلاميذه أن يتدربوا تدريباً طويلا فى المناطق الجبلية البعيدة ، لذلك فهو دائماً يجوب صحارى مصر ومعه تلاميذه . . ومعهم معسكر صغير . . يتنقلون به بين الجبال والسهول والأودية ومنذ فترة قريبة حط رحاله ومعه الطلبة . . وعددهم قليل . . فى وادى الدباح ، وكان أول ما فعل أن بحث عن قبر الشيخ العبادى الطيب الذى حذّره من السيل قبل وقوعه ، بعد أن علم من أحد الرعاة أن المنية وافته قريباً من ذلك المكان فدفن تحت شجرة غير بعيدة ، وجلس الأستاذ خاشعاً أمام القبر وقرأ الفاتحة وأجزاء من القرآن الكريم على روح الرّاحل الأمين ، ولم يجد بأساً فى أن يتخذ من تقاليد العبابدة ما يناسب المقام ، فوضع كمية من السكر والشاى وبعض الأكل المحفوظ بجوار القبر ، هدية منه للزائرين . . وعابرى السبيل .

وعندما جلس ليرتاح من عناء العمل الشاق ، فوق جبل الدباح ، نظر إلى الوادى وحملق فى مكان المعسكر القديم الذى لم يبق منه حتى الأطلال . نظر فى صمت طويل . . لم يقطعه عليه أحد من تلاميذه ، ربما لشعور خفى غمرهم بأن الأستاذ يتعبد فى محراب الذكريات . وإذا به يرى بعيون الذكرى . . المعسكر المفقود . . كاملا بكل تفاصيله كأنه قائم حتى الآن . تذكر أصدقاءه القدامى أفراد

البعثة . . وحكايات كل منهم ونوادره . وجالت عيناه فى كل موضع من المعسكر ووقف كثيراً أمام المكان الذى كانت فيه خيمة نومه .

وانتقل ببصره إلى الطرف الشرقى من المعسكر القديم . وإذا به يشعر بأسى عميق على كلبه الوفى الذى دفنته السيول حيًّا ، وهو مقيد الحركة . . مكمم الفم . . فمات نتيجة لوفائه . . وقسوة صاحبه .

وأخذ يتمتم بين الفينة والفينة بكلام لا يسمعه تلاميذه .

فيقول :

– سبحان الله العزيز الحكيم . . ألهم سكان الصحراء صواباً لا يوجد فى الكتب ، وعلم الفأر ما لا يعلم الإنسان .

* * *

قبل الشروق

« من زرع حصد »

قول معروف . . ومعقول ، ولكنه فى العادة لا ينطبق على من يعملون فى مجال الثروة المعدنية ، فى هذا المضمار تجد جيلا يزرع . . وجيلا آخر يجنى الثمار ، ذلك لأن الفرق الزمنى كبير بين أولئك الذين يقومون بمهمة البحث والتنقيب . . أى أفراد البعثة الجيولوجية ، وهؤلاء الذين يتولون عملية الاستخراج . . أى رجال المناجم .

تمضى أعوام طويلة . . يعيش المستكشفون خلالها متنقلين فى مجاهل الصحراء ، وربما يقضون حياتهم كلها فى البحث والتنقيب ، وعندما يعثرون على ثروة معدنية هامة ، يأتى دور الدراسات التفصيلية ، وهى دراسات مستفيضة تجرى على الموقع المكتشف . . قد تستغرق أعواماً أخرى ، وربما يمضى جيل أو أكثر

قبل أن تنتهى الإنشاءات اللازمة للمناجم والمساكن ، ووحدات تركيز الخام والإنتاج . . وإنشاء الخط الحديدى الذى يصل بين المنجم والعمران . . وهو ضرورى لنقل المعدات الثقيلة والمواد الخام . . هى فترة قصيرة من عمر الدولة . . ولكنها عادة ما تكون أطول من عمر الأفراد .

وتسلط أضواء التكريم على أولئك الذين يعملون فى المناجم الجديدة . . فى جوف الصحراء . . ويمسى زملاؤهم القدامى الذين اكتشفوا المكان الجديد . . فى غياهب النسيان . ربما أدركت بعضهم السن القانونية . . أو أقعدتهم الشيخوخة . . أو أمراض الصحراء وأمراض الاغتراب ، وغيرهم وافتهم المنية قبل أن يروا شمس الإنتاج والعمران تشرق على المكان الجديد . أما من كان حيًّا . . ولم يزل قادراً على العمل فإنه فى العادة يبقى فى تخصصه الذى تمرس عليه . . وهو الاستكشاف . . لذا فإنه يواصل السعى فى القفار . . بحثاً عن اكتشاف جديد .

وقد يقوده البحث ذات يوم إلى قمة جبل يشرف على مكان المنجم الذى اشترك فى اكتشافه أيام الشباب ، فإذا به ينظر إلى أسفل فى الوادى البعيد فيرى مدينة صغيرة عصرية . . أو قرية منجمية نموذجية . فتحل سعادة غامرة فى نفسه تزيل عنه مشاعر الوحشة والإرهاق ، ويمعن النظر إلى المدينة فى فخر وابتهاج . . وكأنه شيخ شقى فى الحياة يرى ابنه الوحيد وقد تخرج من الجامعة فيشعر بأن عمره لم يذهب هباء . . وها هى ذى أمامه ثمار السعى والكفاح . ويمضى إلى القرية سريع الخطوات . . يفيض عليه شعور طيب بالحب والانتماء . . هذه بلدته التى قضى على أرضها أيامه الأولى . . يعود إليها بعد طول الغياب .

ولكنه يمر فى شوارعها غريباً لا يعرفه أحد . . ولا يعرف فيها أحداً ، يطلب قربة من الماء أو شيئاً من الدواء أو بعض الوقود لسيارته ، أو يبحث عن مطعم عام ليتناول فيه وجبة ساخنة وفاكهة طازجة . . تريح أمعاءه من الخبز اليابس والأكل

المحفوظ الذى أرهقة خلال الشهور الماضية ، وهو فى العادة لا يجد مثل ذلك المطعم . . فالجميع يتناولون طعامهم فى نادى المنجم ، ولا يوجد محلات عامة يبتاع منها ما يريد . . بل جمعية تعاونية لا تتعامل إلا مع موظفى الشركة . . وبالمواعيد .

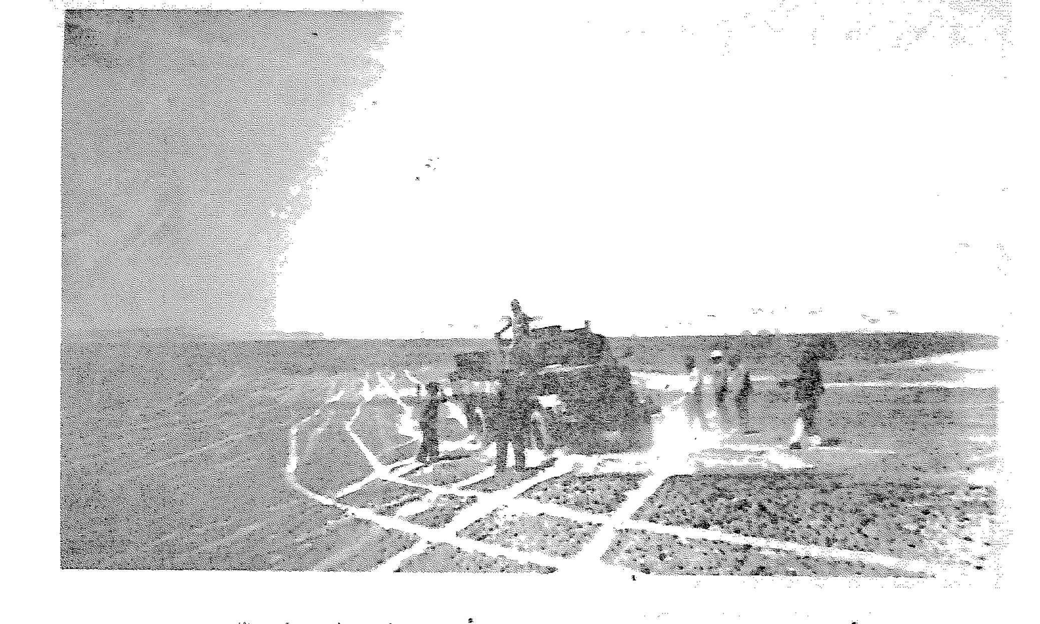
وقد يعترض طريقه بعض الخفراء ، لأنه رجل غريب فضلا عن ذقنه الطويل وشعره الأشعث المحمل بالأتربة والرمال ، ربما ظنوا أنه أحد الخارجين على القانون أو الأشقياء ، فيبرز لهم بطاقته ويشرح لهم أنه أحد الأفراد الذين يعملون فى بعثة جيولوجية تقوم بالتنقيب فى الصحراء . وعندما يعرف الناس هويته ويأنسون إليه . . يرحبون به ويصحبونه فى جولة قصيرة ليشاهد بلدتهم الجميلة التى تقع فى قلب الصحراء . وربما يدعوه بعضهم إلى شرب الشاى أو إلى تناول الطعام فى نادى الشركة ، وهناك . . يتحدث إليهم كالمجنون ، ويقول لهم إنه أول من وطئت قدمه هذا الوادى منذ ربع قرن أو يزيد ، فيلتفون حوله باهتمام وترحاب ، ويسأله شاب صغير :

— حدثنا يا عمنا كيف كانت هذه الأرض قبل أن يطأها منا أى إنسان .

فيشعر بسعادة فائقة لهذا السؤال ، وكأنه نال به كل التقدير والتكريم ويصمت قليلا ثم يقول :

— سبحان من له الدوام ، كل شئ تغير . . نعم كل شئ . والله يا بنى لولا هذه الرواسى الشامخة التى تحيط بالوادى الفسيح لظننت أننى ضللت الطريق ، أو أننى انتقلت فى غمضة عين على ظهر البراق . . من جوف الصحراء المصرية إلى بلدة جميلة فى الريف الأوربى . لم تكن هناك يا ولدى عمارات وحدائق ، أو طرق مرصوفة وخط سكة حديد ، أو حمام سباحة ومكتب بريد ، أو ناد أو مدرسة ، أو أزهار جميلة وأشجار . .

وهنا يتوقف مستدركاً ثم يقول :



وأقبل الصيف . وصعب علينا الحصول على الماء . وأصبحت المسافة التى يقطعها اللورى ، من أجل الوصول إلى القصير طويلة . . وكثرت أعطاله فى الطريق



— بل كانت هُنا شجرة واحدة . . فى هذا المكان ، بالله عليكم لماذا قطعتموها . . إنها كانت عزيزة علينا ، ولنا عندها ذكريات .

ويقول :

— أما استراحه كبار الزائرين فقد كان مكانها « رجم » من الأحجار المرصوصة ، بنيناه لكى نهتدى به إلى مكان الاكتشاف . ثم يضحك قائلا :

— ولم يكن هنا بالطبع نساء أو أطفال .

ويمضى فى ذكرياته فيقول :

— وهل تعرفون الطرف الشرقى من البلد الذى تطلقون عليه . . « حى الشريف » إنه منسوب إلى سائق اسمه محمد الشريف ، احترقت سيارته ذات يوم فى هذا المكان ونُجِّى بحمد الله . ويومها ضقت ذرعاً بالصحراء وتمردت على الجيولوجى رئيس البعثة ، رحمة الله عليه .

ويبات المستكشف القديم ليلته مُحاطاً بكل التكريم . . من جميع العاملين ، وفى الصباح يغادر البلدة ، ويصعد بسيارته الهضبة المتاخمة ، وهو يشعر بقوة جبارة يكاد أن يقرع بها الجبال ، وينظر من فوق الجبل إلى القرية . . ، كأنّ العاملين بها أولاده ، والأطفال الذين يتزاحمون أمام المدرسة . . حفداؤه . وقد تغلغل تكريمهم له فى أعماق نفسه ووجدانه ، هو تكريم طبيعى يشعر به رجال المناجم . . نحو البعثات الجيولوجية التى سبقتهم إلى الأماكن المجهولة ، تجده فى كل أوان وكل مكان .

وأشهد أننى لا حظت ذلك التكريم فى كل بلدة من بلاد المناجم . . التى قمت بزيارتها سواء فى صحارى مصر أو فى الدول الأجنبية ، كنت أرى فى مكتب المدير صورتين ، الأولى قبل نشأة البلد . . مبين فيها معسكر صغير يتكون من خيام قليلة . . هو معسكر البعثة الجيولوجية التى اكتشفت هذا المنجم ، وأما الصورة الثانية فهى

لنفس الموقع بعد أن تم العمران وحل الرخاء . . وقد التقطت هذه الصورة الأخيرة للمدينة الجديدة من الجو فظهرت عماراتها العصرية . . وحدائقها الغنّاء . . فى شكل خلاب . . ومكتوب على الصورة الأولى : « كيف كنا » ، وعلى الثانية : « وكيف أصبحنا » .

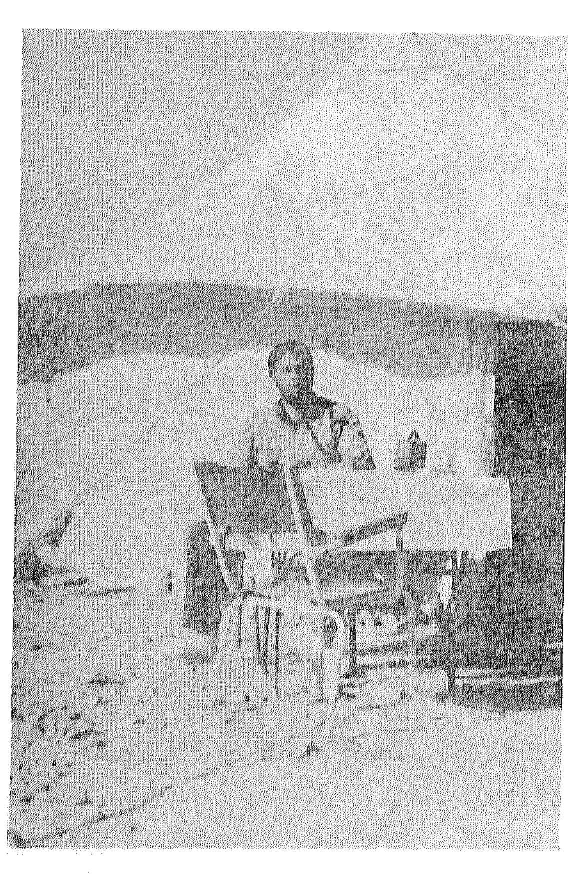
* * *

وسوف تشرق عما قريب . . على الجزء الأوسط من الصحراء الشرقية فى مصر . . شمس الإنتاج . . إنتاج اليورانيوم . سوف نرى فى بلاد العبابدة طرقاً مرصوفة ومستعمرات سكنية وسكة حديد ، وبلاداً جديدة . وربما نسمع فى المستقبل عن قرية منجمية حديثة اسمها مثلا قرية « العطشان » نسبة إلى وادى العطشان ، أو قرية الدباح ، أو العرضية ، أو أم حيوط .

وقد تظهر مدينة صغيرة فى وسط هذه القرى ويطلقون عليها اسم المعدن المستغل فيكون اسمها « مدينة اليورانيوم » ، على غرار « يورانيوم سيتى » فى شمال كندا ، و « مدينة الحديد » التى تقع شمال الواحات البحرية .

كان العثور على اليورانيوم فى مصر حُلماً وخيالا يشبه المستحيل ، هكذا كان الرأى عند خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالأمم المتحدة عندما زاروا مصر فى منتصف الخمسينيّات ، والسبب فى ذلك كما جاء فى تقريراتهم « صعوبة المعيشة فى الصحراء واستحالة التنقل فى الأماكن المجهولة فيها » ولكن هذا الرأى لم يزد الإنسان المصرى إلا إصراراً على تحقيق ذلك المستحيل .

وشهدت جبال المنطقة غزواً جريئاً من شبان يتسلقون قممها الوعرة ويمسحون حوافها القاتلة بكل دقة وإصرار ، كما شهدت طائرات استكشاف تجوب الاودية على ارتفاع منخفض خطير ، تسجل . . بأجهزة بالغة التعقيد . . قراءة الإشعاع فى الجبال . . ومن وراء أولئك جميعاً جهاز قدير من رجال المعامل . . كانوا دائماً فى



في معسكر البعثة . . قبل الخروج في إحدى رحلات الاستكشاف



معاملهم ساهرين .

ومرت الأعوام . . ونحن نتنقل بين السهول والجبال ، ما من جبل فى الصحراء الشرقية الوسطى إلا وتسلقناه ، وما من هضبة إلا ومسحناها بأجهزتنا وأخذنا منها العينات اللازمة للتحليل ، وفى كل مكان كانت لنا بصمات من تلك الرحلات . . خنادق فى الجبال ومغارات وكهوف عميقة الأغوار . وكنا فى سعينا هذا نستخدم أجهزة حديثة نقيس بها درجة إشعاع الصخور . . اسمها « السنتللومترات » أى أجهزة العد الومضية . . وهى أكثر تطوراً من تلك الأجهزة المعروفة بعدادات « جيجر » . ومن هذه الأجهزة ، ماكان مُصمَّماً بحيث يركب على طائرة استكشاف ، أو على سيارة ، ونوع آخر كان صغير الحجم بحيث يحمله الإنسان على ظهره أو بين يديه ليصل به إلى الأهداف التى تغيب عن الطائرة ، وتعجز عن بلوغها السيارات .

كنا نخرج من المعسكر كل يوم قبل مشرق الشمس ونعود إليه بعد الغروب . واعتاد كل رجل أن يمضى يوماً عسيراً بين الجبال ، ويعود بلا نتائج تذكر . كنا كمن يبحث عن سمكة ضالة فى المحيط . أصبحت النتائج السلبية لا تؤرقنا . . ألِفْناها . . وألفنا معها اليأس ، ولكننا لم نكف عن السعى وكأننا أصبحنا فى غنى عن أى تشجيع ،حتى النتائج الإيجابية النادرة لم تكن تفرحنا ، وهى عبارة عن مواقع جديدة تكون درجة الإشعاع فيها مرتفعة بشكل ملحوظ ، لأننا نعرف أنها سوف تتعرض بعد ذلك لاختبارات تفصيلية عسيرة ربما تلقى بها فى جانب السلبيات ، ويلغى ذكرها من الخريطة . . وكأن الجهد الشاق الذى بذل من أجل اكتشافها لم يكن ، والأحداث التى عاصرتها قد محيت من حياة المستكشفين .

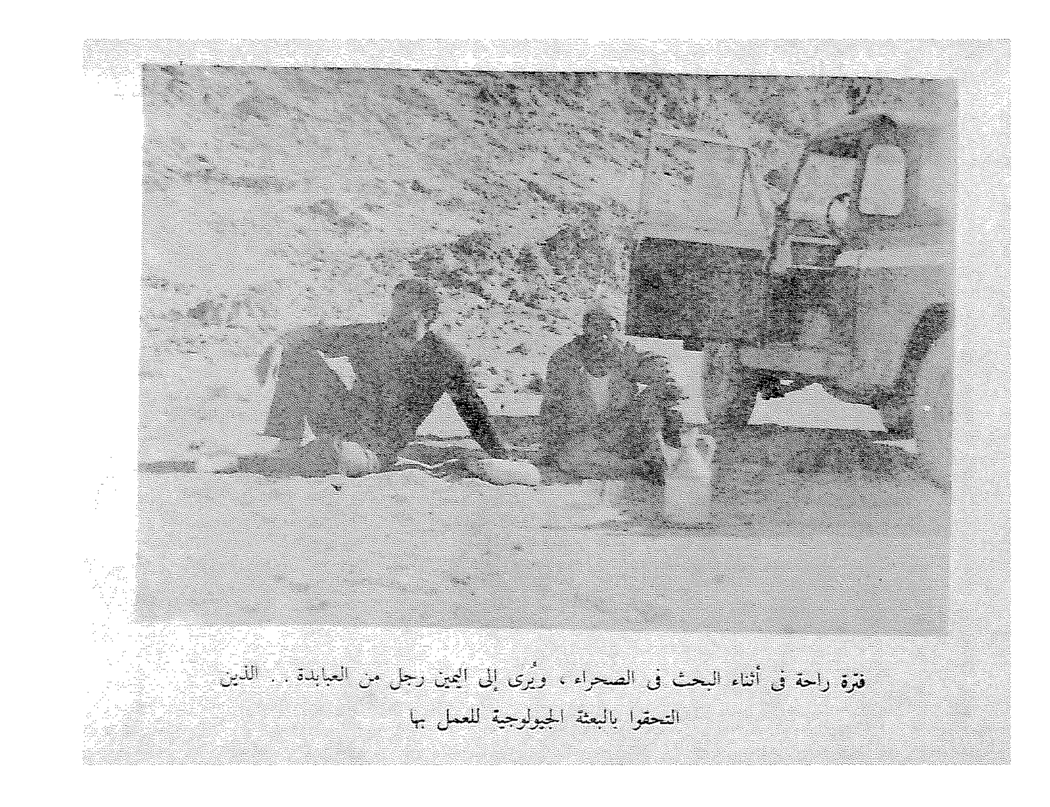
ومع كل يوم من أيام الفشل . . كانت عزيمتنا تزداد بغير سبب مفهوم ، وكأن الإرادة كانت مع اليأس فى سباق ، والعزيمة مع القنوط فى عناد . ربما كان وراء

ذلك « طاقة الاستكشاف » التى وهبها الله بنى الإنسان ليعينهم على السعى وحب المعرفة . وخوض كل مكان جديد ، وجعلها سبحانه لا ترتبط بأى آمال فى الحياة . . لا الشهرة ولا المجد ولا المال .

وبمرور الأعوام تجمعت النتائج الإيجابية على ندرتها فأصبحت كثيرة ، وازداد عدد المواقع التى ثبت فيها وجود اليورانيوم وأصبحت تحصى بالمئات .

وأخذ معسكرنا يواصل الحركة ببطء نحو الغرب ، واستمر بنا الانتقال من مكان إلى آخَر حتى أصبح التغيير هو الأمر الثابت والاستقرار لفترة ما فى أحد الأودية هو الأمر الغريب . وتوغلنا كثيراً فى جوف الصحراء ، وإذا شاطئ البحر الأحمر بعيداً ، والطريق إليه طويل ، وأقبل الصيف ، وصعب علينا الحصول على الماء ، وأصبحت المسافة التى يقطعها « اللورى » من أجل الوصول إلى القصير ، طويلة ، وكثرت أعْطَالُه فى الطريق ، وكثيراً ماكان يخذله مكثف القصير ، فلا يرضى السائق أن يرجع إلينا بغير الماء فهو يعرف أننا نمُر بليالٍ عسيرة من الظمأ والانتظار . . فيسافر إلى قنا ، وعلى الرغم من هذا فكثيراً ماكنا نكتشف بعد رجوعه أن معظم الماء فقد أثناء الطريق بفعل « المطبات » التى تقذف به من الخزانات ، وربما وجدنا أن الخزانات نفسها قد كسرت من أسفل وأصبحت خاوية تماماً من الماء .

وذات يوم من أيام القيظ ، وقد بلغ بنا العطش مداه بعد أن نفد الماء كله ، وجمعنا المتبقى منه فى الأوانى القذرة ، ولحس الناس صدأ الماء فى قاع الخزان ، ومرّ يوم . . ثم يومان ونحن عن الكلام صائمون . . توفيراً للماء فى اللعاب ، إذا بصمت الصحراء المهيب ، يقطعه صوت يشبه صوت سيارة قادمة ، وخرج الناس من خيامهم مهللين ومكبرين . وصعدت فوق التل القريب ونظرت بالمنظار فلم أجد إلا الفراغ الكئيب ، إنه صوت سمعناه بالظمأ وأحلام الارتواء ، فقد هبت الرياح



فترة راحة فى أثناء البحث فى الصحراء ، ويُرى إلى اليمين رجل من العبابدة . . الذين التحقوا بالبعثة الجيولوجية للعمل بها



فجأة فأحدث احتكاكها بقمم الجبال صوتاً جسّمه أمل الحياة على ما نهوى ونريد .

وبعد صمت طويل قال قائل منا :

– ألم يحن الوقت بعد . . لكي تحرروا أنفسكم من ربقة المكثف الذى يمنحكم الماء مرة ويحرمكم منه مرات ؟ كفوا عن الذهاب إلى القصير ، واهبطوا وادى النيل واقصدوا النهر العظيم . . ماذا يضيرنا لو نتجه إلى الغرب بدلا من الشرق ؟ إنّ النيل كريم أصيل ، ولن ترجعوا منه مرة خائبين ، ونظرنا إلى الخريطة فإذا الطريق لم يزل إليه طويلا ، وإذا به جدّ عسير ، ولكن الرحلة مهما كانت صعبة ففى نهايتها الماء مضمون .

ومنذ ذلك اليوم انقطعت صلتنا تماماً بشاطئ البحر الأحمر وأصبحت علاقتنا كلية بمدينة « إدفو » ونقلنا عنواننا من مكتب بريد القصير إلى مكتب بريد إدفو .

ومضت أيامنا رتيبة ، لا يقطعها إلا فرحة وصول الماء ، كنا نشعر مع كل مرة تصل فيها السيارة سالمة وكأننا بعثنا من جديد .

وذات يوم وصلت هذه السيارة ، وفيها خطاب رسمى له أهمية كبيرة بالنسبة لنا ، كل ما فيه أخبار سارة ، ومن الخطابات ما يكون نقطة تحول حقيقية فى الحياة . وهكذا كان ذلك الخطاب بالنسبة لنا . يوجه قسم الجيولوجيا والخامات الذرية الشكر للبعثة . على ما اكتشفت من مواقع مشعة هامة .

ويبلغنا بأن وادى العطشان الذى عملنا فيه منذ سنين وهجرناه كما هجرنا غيره من الأودية ، تقرر أن يبدأ فيه أول منجم تجريبى لليورانيوم . . فى تاريخ مصر ، كذلك تقرر وقف العمل فى البعثة لكى تستأنف عملها فى الخريف القادم فى مكان آخر جديد .

وفى الخطاب خبر آخر يخصنى : إننى رشحت للسفر إلى أوربا .
وانتهت رحلتى . . فى بلاد العبابدة ، لكى تبدأ رحلة جيولوجية جديدة . . فى القارة الأوربية .

سمير محمد خواسك
كلية العلوم - أسوان

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨٢/٤٥٩٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٢٠٠-٢	ISBN

١/٨٢/٢٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)





